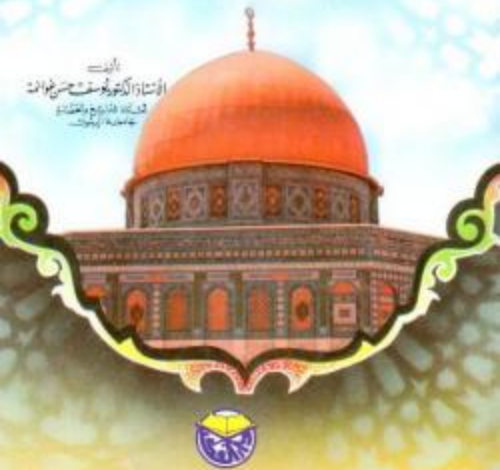


صَفِيحَاتُ مِرَّةٍ تَارِيخِيَّةٍ الْقُدْسِ وَفِلَسْطِينَ وَالْأُرْدُنِ فِي الْعَصْرِ الْإِسْلَامِيِّ

بِإِذْنِ
الْأُسْتَاذِ الْكَبِيرِ وَالْمُسْتَفْتَى حَسَنِ طُهْرَانِي
مَدِينَةِ فَارِسِ وَالْعُلَمَاءِ
جَامِعَةِ الْبَهْمَنِيَّةِ



﴿ بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ ﴾

﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِيْ عِلْمًا ﴾

صدق الله العظيم

صَفِيْحَاتُ رِيْثَةِ سَارِقِ

الْقُدْسِ وَفَلَسْطِيْنِ وَالْأُرْدُنِّ

فِي الْعَصْرِ الْإِسْلَامِيِّ

رقسم التصنيف : ٩٥٦، ٤١١
رقسم الإيداع : (١٩٩٨/١١/١٩٥٣)
المؤلف ومن هو في حكمه : يوسف حسن غوامه
عنوان المصنف : صفحات من تاريخ القدس
وفلسطين والأردن في العصر الإسلامي
الموضوع الرئيسي : ١- التاريخ والجغرافيا
٢- فلسطين - تاريخ - القدس
٣- الأردن - تاريخ
بيانات النشر : عمان / دار الفكر
x تم اعداء بيانات الفهرسة والتصنيف الاولى من قبل دائرة المكتبة الوطنية

حقوق الطبع محفوظة للناسر

Copyright ©

All rights reserved

الطبعة الاولى

١٩٩٩م - ١٤١٩هـ



دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع

سوق البتراء (الحجيري) هاتف ٤٦٢١٩٣٨ - فاكس ٤٦٥٤٧٦١
ص.ب. ١٨٣٥٢٠ عمان ١١١١٨ الأردن

DAR AL-FIKR Printing - Publishing - Distributing

Husseini Mosque - Tel. : 4621938 - Fax. : 4654761
P.O.Box : 183520 Amman 11118 Jordan

صِفْحَتُكِ مِثْلُ تَارِيخِ
الْقُدْسِ وَفِلَسْطِينَ وَالْأُرْدُنِّ
فِي الْعَصْرِ الْإِسْلَامِيِّ

تأليف
الأستاذ الدكتور يوسف^ص حسن غوانمة
أستاذ التاريخ والحضارة
جامعة اليرموك



دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع

الإهداء

الى روح والدي، شيخ الغوانمة وكبيرهم الانسان المتدين الأمين
الصادق، الوفي، المحب لأهله وبلده ووطنه وأمته ...
الى الانسان الذي أدخلوه المعتقل ظلماً اثر ثورة العراق 1958 م ،
فقاسى، وتالم فتضخم قلبه داخل معتقله واعتل ...
الى أبي الأردني الأصيل، رجل الأعمال والسياسي الذي عجز قلبه
بسبب ما حاق به من ظلم وعسف، فتوقف هذا القلب فجأة ...
الى هذا الكبير الذي علمني معنى الوطنية والانتماء ...
الى أبي النموذج الأردني العربي الذي قضى بهدوء، ولكنه ظل
الرمز والقدوة للأبناء البناة المخلصين الصادقين ...
فالى روحه الطاهرة أهدي هذا الكتاب .

المؤلف

فهرس الموضوعات

1. عروبة القدس في ضوء الحقائق التاريخية 71
2. دور القاهرة ودمشق وبغداد في تحرير القدس الشريف 25
3. الوجود الافرنجي في بيت المقدس استهدف احتلال جنوب الأردن ... والمقدسات الإسلامية في الحجاز . 37
4. ممارسات صلاح الدين في تحقيق الأمن القومي 41
5. بالوحدة وبالوحدة حرر بيت المقدس . 47
6. الأردنيون وفلسطين ... الكرك وأميرها الناصر داود يحررون القدس . 51
7. المؤسسات الاجتماعية في بيت المقدس في العصر الإسلامي . 61
8. مدينة عمان الأردنية في التاريخ الإسلامي الوسيط 69
9. دراسة في تاريخ مدينة السلط في العصر الإسلامي 83
10. الأهمية التجارية والاقتصادية لمدينة (العقبة) في العصر الإسلامي 93
11. مدينة عجلون وأهميتها التجارية والاقتصادية في العصر الإسلامي . 101
12. التجارة الدولية وطرق المواصلات والاتصالات في الأردن في العصر الإسلامي . 109
13. الأردنيون والانتماء القومي ... ثورة الكرك بقيادة الناصر أحمد ومظاهرها القومية . 115
14. الكرك والكركيون واهنلنا في جنوب الأردن وباديتها ... رؤية تاريخية . 125
15. الديموغرافية وعناصر السكان في مدينة القدس في العصر الإسلامي ... الوجود اليهودي كان محدوداً لمئات السنين 135



مكتبة

المفتدين

مقدمة

لفت انتباهي أحد الشباب بعد أن أقيت محاضرة في مدينة الكرك الى أن كتب شيئاً عن تاريخ الأردن في الصحف اليومية، كي يطلع ويعرف هؤلاء الشباب شيئاً عن بلدهم ووطنهم . لأن الصحيفة تكون في متناول اليد يومياً بعكس الكتاب، وقد وجدت هذه الرغبة قبولاً لدي فتوجهت الى الأساتذة محمود الكايد وسليمان القضاة وعبد السلام الطراونة في صحيفة الرأي فوجدت منهما التشجيع والقبول الجيد. ولما كنت صاحب رسالة فلقد آليت على نفسي أن أكتب وأنشر ما يفيد المواطنين بعلمية وبأسلوب سهل مباشر .

لقد كانت فرصة طيبة لي كي أعطي القارئ فرصة للتعرف على (الحقيقة) التاريخية، والمتمثلة بان هذا الجزء من بلاد الشام عانى وما زال يعاني منذ عصور قديمة. فقد غزته واحتلته دول وشعوب عديدة، ولكنها رغم بقائها لمئات السنين لم تستطع القضاء على الهوية القومية والوطنية لأمتنا العربية، فظل الوطن عظيماً بأهله وبعقيدته وكبريائه .

وهذه الدراسات التي أقدمها في هذا الكتاب تؤكد للعالم كله أن فلسطين والأردن عانتا الكثير معاً منذ خروج العبرانيين من مصر باتجاه فلسطين، فلقد وقف أهالي شرقي الأردن ضد هذا الزحف وقاوموه ، وجرت حروب طاحنة بين المؤابيين والعمونيين والعبرانيين ، لذلك فان التواراة تزخر بالشتائم العديدة ضد العمونيين والمؤابيين . وقد قام الأنباط ومن ثم الغساسنة في محاربة اليهود ، لذا فاليهود لم يعيشوا إلا نادراً في منطقة شرقي الأردن منذ العصور القديمة مروراً بالعصر الإسلامي والعصر الحديث.

ولن أنسى ما قدمه الأردنيون عندما تعرضت فلسطين للاحتلال

الفرنجي (الصليبي) ، فقد عانى جنوب الأردن من الاحتلال الفرنجي مدة خمسة وسبعين عاماً . وكانت الأرض الأردنية ساحة لجنود صلاح الدين فمها دخل الى فلسطين وكان النصر في حطين وتحرير بيت المقدس. ثم كان لجيش الكرك جهوده المشكورة في تحرير بيت المقدس بعدما سلمها الكامل محمد لفرديك الثاني في الحملة الفرنجية السادسة. ولن ننسى جهود جيش الكرك في تحرير آخر معقل للفرنج على الساحل الفلسطيني، فقد كان لجيش الكرك الأثر الكبير في تحرير عكا والساحل الشامي كله بعد غربة دامت مئتي عام .

ولا بد من التأكيد على ان الخطر الذي يهدد فلسطين يهدد الأردن كذلك، فتاريخ هذا الجزء من جنوب الشام مرتبط ارتباطاً عضوياً معاً. لمسنا ذلك منذ عصور قديمة، ونحن الآن نشاهد الامتزاج والاندماج بين هذين الشعبين، حتى أصبحت شعباً واحداً. كما وان الأردن كان مركز حكم ففيه تأسست امارة الكرك الأيوبية، ثم نيابة الكرك، ونيابة عجلون، وكانت أجزاء من فلسطين تتبع امارة الكرك في عهد الملك الناصر داود بن المعظم عيسى، فالتاريخ السياسي للأردن يبدأ منذ أوائل القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي .

لقد أدت واجباً وطنياً بنشر هذه الموضوعات في صحيفة الرأي، فلهذه الصحيفة والقائمين عليها كل الشكر والتقدير، لأنها تفرد صفحات كاملة للدراسات المختلفة تاريخية، وفلسفية وعلمية وفكرية ووطنية وقومية، وهذه رسالة نتمنئها للرأي ورئيس مجلس ادارتها ومحررها المسؤول .

ان جمع هذه الموضوعات في كتاب واحد يسهل على الباحثين والدارسين فرصة الاطلاع على صفحات ناصعة من تاريخ القدس والأردن وفلسطين في العصر الإسلامي، والملاحظ أن تاريخ القدس ارتبط ارتباطاً وثيقاً بتاريخ الأردن منذ القدم، وما زالت القدس تشكل هماً وطنياً وقومياً للنظام الأردني منذ أوائل هذا القرن. فقد دفن الحسين بن علي مفجر الثورة العربية في المسجد الأقصى، أما عبد الله بن الحسين فقد استشهد على عتبات المسجد الأقصى، وها

هو الحفيد الحسين بن طلال يعمل مع وسعه الجهد من أجل عروبة القدس وانقاذها من سياسة التهويد والضم الإسرائيلية . أما ولي العهد الحسن بن طلال فله صولاته وجولاته في المحافل الدولية حول تفنيد الأباطيل اليهودية والتأكيد على عروبة القدس وله مؤلفات عديدة في هذا الموضوع نشرت باللغة الانجليزية والعربية معاً .

وأخيراً فان تاريخ القدس هو جزء من تاريخ الأردن الوسيط والحديث، ولن يهدأ بال للأردن والأردنيين إلا إذا حررت القدس وعادت الى أهلها وأصبحت عاصمة دولة فلسطين العربية المنتظرة ، وإن غداً لناظره قريب ...

إربد في

1998/10/17م

د. يوسف غوانمة





عروبة القدس الشريف في ضوء الحقائق التاريخية

[لم يعد التاريخ سيراً لأشخاص، أو تاريخاً لأعمالهم وحرورهم، فالعلماء أكثر إسهاماً في تقدم العقل البشري من رجال السياسة والحرب. ولم تعد الظاهرة السياسية هي وحدها الجديرة بالتاريخ، وإنما النشاط البشري ممثلاً في حضارة الأمة هو الذي يعبر عن شخصيتها] .

بيت المقدس تعني المكان المطهر من الذنوب ، واشتقاقه من القدس وهي الطهارة والبركة، فبيت المقدس إذن هو المكان الذي يتطهر فيه من الذنوب .
والقدس مدينة عربية، بناها اليبوسيون الذين هم بطن من الكنعانيين، وسموها (أورسالم) و (شاليم) ، وعرفت في النقوش الفرعونية في حوالي القرن التاسع عشر قبل الميلاد باسم (أوشاميم) Aushamem ، ثم تطور الاسم إلى (أورشليم) . وعندما قدم العبرانيون إلى أرض فلسطين في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، كانت (أورسالم) أو (أورشليم) الكنعانية موجودة قبل ذلك بقرون عديدة. وقد حاول العبرانيون السيطرة عليها ولكنهم فشلوا، وبقي الأمر كذلك حتى عهد الملك داود فانتزعها من اليبوسيين سنة 996 ق.م ، وجعلها عاصمة لدولته، وصار يطلق عليها اسم (هيروسليما) Hieroselyma . ومن هذا الاسم اشتق الأوربيون اسم (جيروسالم) Jerusalem . ثم إن الدولة العبرية انقسمت إلى مملكتين عام 923 ق.م . يهوذا وإسرائيل. ولم يدم ذلك طويلاً فمملكة إسرائيل انتهت على يد سرجون الأول الآشوري عام 722 ق.م ، أما مملكة يهوذا فزالَت عام 586 ق.م . على يد نبوخذ نصر البابلي .

ومما تجدر ملاحظته أن العبرانيين عندما قدموا أرض فلسطين وجدوا أهلها الكنعانيين على درجة من التقدم الحضاري، فأخذوا أبجديتهم ولغتهم وانصهروا في

بوتقة الحضارة الكنعانية من حيث العادات والتقاليد والعمارة . ويؤكد علماء
الفيلولوجيا أن أسماء الطبوغرافية الشامية سامية بحتة ، أمورية وكنعانية ،
وفينيقية ، وأرامية وجذورها مشتركة .

وبعد سنة 333 ق.م. دخلت بلاد الشام تحت حكم الاسكندر المقدوني ،
وانقسمت امبراطوريته بعد وفاته بين قواده ، وكانت بلاد الشام من نصيب
سلوقس Selecus ، ومصر من نصيب بطليموس Ptolemy . ولكن بطليموس ضم
جنوب الشام إليه ، فأصبحت اورشليم تحت سلطان البطالمة في مصر . ولكن
أنطيوخس الثالث السلوقي Antiochus III تمكن من الانتصار على البطالمة وأعاد
جنوب الشام الى دولته ، فدخلت اورشليم سنة 198 ق.م. تحت حكم السلوقيين .
ثم جاء انطيوخس الرابع Anthiochus IV فثار اليهود عليه / فاجتاح انطيوخس
الرابع اورشليم سنة 169 ق.م. وأباحها لجنوده وأمر بإلغاء الديانة اليهودية . وفي
فترة الضعف التي أصابت السلوقيين تمكن المكابيون من السيطرة على اورشليم
وهزيمة السلوقيين ، مما اضطرهم الى الاعتراف بسلطان المكابيين الذين منحوهم
نوعاً من الاستقلال سنة 141 ق.م . وبقي الأمر كذلك حتى جاء الرومان بقيادة
بومبي سنة 63 ق.م. فأنهوا حكم المكابيين من اورشليم سنة 37 ق.م .

ثم إن اليهود ثاروا على الرومان سنة 66م ، فعهد الامبراطور فسبسيان الى
ابنه تيطس Titus إخماد الثورة ، فاحتل تيطس اورشليم بعد حصار دام خمسة
أشهر ، وهدم المدينة وأحرق المعبد . ولكي يُحكم الرومان سيطرتهم على اورشليم
رابط الفيلق الروماني العاشر قربها ، وبذلك أنهى تيطس الوجود اليهودي من
القدس . ثم إن الامبراطور الروماني هديران أعاد بناء اورشليم وغير اسمها الى
(إيليا كابتولينا) Aelia Captolina ، وحرم على اليهود دخولها ، وتردد ذكر (إيليا)
في المصادر العربية بعد الفتوحات العربية الإسلامية .

وبعد ظهور المسيحية قاوم اليهود الدين الجديد ، ثم اعترفت الدولة الرومانية
بالدين الجديد على يد الامبراطور قسطنطين الذي اعتنق المسيحية عام 312م .
عندئذ قامت والدته القديسة هيلانة Helena بزيارة (إيليا) وأمرت ببناء كنيسة
القيامة وكنيسة المهدي في بيت لحم .

أصبح عدد اليهود في فلسطين في العصر البيزنطي ضئيلاً ، ومع ذلك حاولوا

الثورة على البيزنطيين الذين كانوا يتصدون لهم ويخدمون تمردهم بعنف وشدة. ففي عهد الامبراطور جستنيان ثار السامرة في نابلس سنة 529 م ، فعهد الامبراطور الى الحارث الثاني الفساني مهمة إخمادها. وفي فترة الصراع الفارسي البيزنطي حاول اليهود التسلل الى (ايليا) والسيطرة عليها، فقدموا المساعدة للفرس أثناء تقدمهم في البلاد سنة 614م ولكن الامبراطور هرقل تمكن من الانتصار على الفرس سنة 628م ، وأعاد الصليب المقدس الى (ايليا) سنة 629م . وعندئذ انتقم من اليهود وأنزل فيهم العقاب لخيانتهم/وتعاونهم مع الفرس، فاضطر بعضهم الى اعتناق الديانة المسيحية، ولجأ آخرون الى أماكن منعزلة فخلت (ايليا) والحالة هذه من اليهود، وبقي الأمر كذلك حتى الفتح الإسلامي .

فتحت (ايليا) على يد أبي عبيدة عامر بن الجراح سنة 17 هـ (648م) بعد أن قدم الخليفة عمر بن الخطاب وتسلم المدينة من أهلها ومنحهم العهدة العمرية. ومن الملاحظ أن عرب الحجاز كانوا يطلقون على ايليا اسم «بيت المقدس» أو البيت المقدس الذي جاء اشتقاقه من «القدس» بمعنى الطهارة والبركة ومنذ ذلك الحين غلب هذا الاسم على المدينة المقدسة .

وللقدس مكانة خاصة لدى المسلمين وعرب الجزيرة العربية حتى قبل الفتوحات الإسلامية لبلاد الشام، فالرسول (ﷺ) عرج الى السماء من بيت المقدس، وكانت القبلة الأولى للمسلمين . وفي الفتح العربي الإسلامي قدم الخليفة عمر بن الخطاب بنفسه الى الشام ليتسلم القدس من أصحابها النصارى . ونصت وثيقة الأمان (العهد العمري) ، انه أعطاهم «أماناً لأنفسهم ولأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم مقيمها وبريهاً وساير ملتها أنها لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا ينقص منها ولا من صلبانهم ولا شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم» . ونص كتاب الأمان صراحة واشترط ألا يسكن في القدس «اليهود» ، وكان ذلك بناء على طلب (صفرونيوس) الذي منعهم من السكنى في المدينة المقدسة .

وبقي الاهتمام قائماً بالمدينة المقدسة في العصر الأموي، فعمد عبد الملك بن مروان سنة 72 هـ (691م) الى بناء المسجد الأقصى وقبة الصخرة كي تكون «مكرمة له ومن مضي من سلفه» . واستمر هذا الاهتمام بالمدينة المقدسة في العصر العباسي، فأعاد الخلفاء العباسيون بناء ما هدمته الزلازل من المسجد الأقصى وقبة

الصخرة، نذكر من هؤلاء : أبا جعفر المنصور والخليفة المهدي الذي زار المسجد الأقصى ورعاه بعنايته. أما المأمون فقد رُمم قبة الصخرة سنة 216 هـ (831م)، وأثبت ذلك في نقش محفور على أطباق البرنز المصقفة فوق الأبواب الأربعة العليا الخارجية للقبة ، وذكر في النقش أيضاً اسم الخليفة المعتصم أخ المأمون ، ونعت بأبي اسحق .

وعندما دخلت المدينة المقدسة تحت النفوذ الفاطمي أولها الفاطميون بعض عنايتهم، فرمموا المسجد الأقصى وأسواره ، وقبة الصخرة ، وذلك في عهد الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله ، وهناك نقش على إحدى الدعائم الكائنة في إطار القبة يحمل تاريخ 413 هـ (1022م) . وذكر ناصر خسرو أن الفاطميين أهدوا الصخرة والمسجد الأقصى قناديل الفضة .

وفي أواخر العصر الفاطمي تعرضت المدينة المقدسة إلى محنة الاحتلال الفرنجي سنة 492 هـ (1099م) فأسأوا إلى الأماكن المقدسة وكونوا مملكة بيت المقدس اللاتينية. وفي العصر الأيوبي حرر صلاح الدين القدس من الفرنج سنة 583 هـ (1187م) ، فحصنها وجدد أبراجها وقوى أسوارها، ثم عمد إلى المسجد الأقصى وقبة الصخرة فجدد عمارتهما، ثم بنى فيها مدرسة للشافعية وربطاً للصوفية، والخانقاة الصلاحية ، و**البيمارستان الصلاحي** ، وأوقف عليها أوقافاً عديدة. وأنشأ الملك عيسى صاحب دمشق المدرسة المنظمية لتدريس المذهب الحنفي، وبنى القبة النحوية بصحن الصخرة لتدريس علوم اللغة العربية، وجدد الأبواب الخشبية للمسجد الأقصى، وبنى القناطر التي على الدرج القبلي للصخرة. وفي سنة 616 هـ (1219م) بنى أحد الأبراج في المسجد الأقصى، ويعتبر المعظم عيسى الأيوبي أحد اثنين من الملوك والسلاطين الذين لهم آثار وأعمال جليلة بالقدس .

وفي العصر المملوكي اعتنى الظاهر بيبرس بعمارة المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وعمر خزانة للسبيل سنة 662 هـ (1263م) ، وبنى فيه طاحوناً وفرناً وأوقف عليه أوقافاً كثيرة . وقام السلطان المنصور قلاوون بتعمير سقف المسجد الأقصى من جهة القبلة ، وبنى الرباط المنصوري في المدينة المقدسة . وفي سنة 695 هـ (1296م) جدد السلطان العادل كتبغا المنصوري عمارة السور الشرقي

بيت المقدس، وجده فصوص قبة الصخرة. أما السلطان الناصر محمد بن قلاوون فهو الثاني من السلاطين الذين لهم آثار وأعمال جلية في البيت المقدس، فقد ذهب القبتين، قبة الصخرة وقبة المسجد الأقصى، وعمر قناة للسبيل عند بركة السلطان خارج القدس، ورخّم صدر المسجد الأقصى، وعمر السور القبلي والقناطر على الدرجتين الشماليتين بصحن الصخرة، وعمر باب القطنين، بالإضافة الى أعمال أخرى عديدة. وفي سنة 769 هـ (1367م) بنى السلطان الأشرف شعبان المنارة التي عند باب الأسباط، وجدد الأبواب الخشبية للمسجد الأقصى، وجدد عمارة القناطر/التي على الدرجة الغربية في صحن الصخرة. أما السلطان برقوق فقد بنى سنة 789 هـ (1387م) دكة للمؤذنين داخل قبة الصخرة، وعمر بركة السلطان خارج القدس من جهة الغرب سنة 801 هـ (1398م) ، وأبطل بها عدة مكوس ومظالم، ونقش ذلك على رخامة الصقها على باب الصخرة، وجدد القيسارية في القدس سنة 788 هـ (1386م) .

ومن أعمال الأشرف برسباي في القدس اهتمامه بأوقاف المسجد الأقصى، واهدائه المصحف الشريف الكبير للمسجد الأقصى سنة 830 هـ (1426م) ، وتعيين القراء ليقرأوا فيه. أما الملك الظاهر جقمق فقد عمر سقف الصخرة بعدما أحرقت بسبب صاعقة ، ووضع مصحفاً كبيراً داخل قبة الصخرة ورتب من يقرأ فيه، وأبطل عدة مظالم من القدس، وأثبت ذلك في رخامة داخل المسجد الأقصى. ومن حسنات الأشرف اينال المصحف الذي وضعه بالمسجد الأقصى، واهتمامه بالأوقاف وترميمه لأشياء كثيرة في المسجد الأقصى. وأنشأ السلطان خشقدم القناة الموصلة الى القدس من عين العروب، كما عمر البركة الشرقية، وبنى مدرسة بجوار باب السلسلة، ووضع مصحفاً كبيراً في الصخرة وعين من يقرأ فيه، وألغى عدة مظالم من القدس. وبنى السلطان الأشرف قايتباي المدرسة الأشرفية سنة 887 هـ (1482م) بجوار باب السلسلة، وعمر قناة العروب فوصلت المياه الى القدس سنة 888 هـ (1483م) بعد أن أنفق أموالاً من أجل ذلك، وله أعمال أخرى كثيرة. أما قانصوه الغوري فقد ألغى عدة مظالم في القدس وأصدر مرسوماً بذلك سنة 919 هـ (1513م) ، ونقشه على رخامة في المسجد الأقصى .

هذا بالإضافة الى الأعمال الكثيرة قام بها الأمراء والنواب في المدينة المقدسة،

فقد بنوا فيها المساجد والزوايا والأربطة والسبل والخانقاوات والمدارس والخانات والحمامات والقيساريات، والأسواق المتشعبة، وأوقفوا بعضها على المسجد الأقصى وقبة الصخرة وبعضها كالمدارس والزوايا والخانقاوات أوقفت عليها الأوقاف للنفقة على الطلاب والمقيمين فيها. حتى أننا نستطيع القول إن القدس الحالية هي قدس أيوبية مملوكية، لأن المنشآت المعمارية والمؤسسات الثقافية والعلمية والاجتماعية، والمنشآت المدنية والعسكرية الباقية إلى الآن كلها أيوبية مملوكية .

هذا الاهتمام بالمدينة المقدسة من قبل الخلفاء والملوك والسلاطين أخذ بعداً سياسياً آخر ، فبعد تحرير القدس سنة 583 هـ (1187م) جعل صلاح الدين الأيوبي من القدس ولاية تابعة لدمشق. وفي العصر المملوكي غير المماليك التنظيمات الإدارية في بلاد الشام إلى (نيابات) ، وظلت القدس (نيابة أو ولاية) صغيرة تابعة (لنيابة دمشق) . ولكن السلطان الناصر محمد بن قلاوون ربطها بنيابة غزة، ثم أعادها إلى نيابة دمشق، وكانت التولية في معظم وظائف القدس تتم من قبل نائب دمشق. وبقي الأمر كذلك حتى سنة 796 هـ (1393م) عندما جعلها السلطان برقوق مستقلة وولى عليها الأمير (قردم الحسيني) ، وجعلها مرتبطة بالقاهرة كغيرها من نيابات بلاد الشام .

إن السبب الذي حمل السلطان برقوق على أن يجعل من القدس نيابة مستقلة يتمثل في الأخطار الخارجية التي ما فتئت تهدد المدينة المقدسة. ففكرة السيطرة على بيت المقدس ظل أملاً يراود الفرنج طيلة العصر المملوكي، فبعد سقوط عكا قاموا بحصار اقتصادي ضد المماليك، كما شنوا الغارات المتكررة على سواحل مصر والشام لتحقيق هذه الغاية. وأعنف هذه الغزوات غزوة بطرس لوز جنان سنة 767 هـ (1365م) على مدينة الاسكندرية. وفي سنة 769 هـ (1367م) هاجم الفرنج طرابلس الشام فدخلوا المدينة ونهبوا الأسواق وحملوا معهم الأسرى. وهكذا دخلت الدولة المملوكية حرباً بحرية مع الفرنج، ناهيك الحصار الاقتصادي الذي أيده البابا وباركه، فقد أقيم تحالف بين التتار والغرب الأوروبي ومملكة أرمينية الصغرى والقوى الفرنجية في الشام وقبرص لهذه الغاية .

وقد أظهر المماليك تفهماً كبيراً للخطرین الفرنجي والتتاري واستعدوا لذلك،

فالظاهر بيبرس أقام خطأ دفاعياً على الحدود لدولته، وشحنه بالرجال والعتاد، وأحكمه بشبكة اتصال قوية تربطه بالقاهرة. كما أقام خطأ دفاعياً آخر يمتد من الشوبك والكرك في جنوب الأردن الى أعالي العاصي شمالاً، كي يقف في وجه الخطرين التتاري والفرنجي معاً. فالفرنج هددوا السواحل المصرية والشامية واجتاحوا مدنه وعطلوا حركة التجارة والاتصالات البحرية المملوكية، أما التتار فكانوا يعبرون الفرات في طريقهم الى بلاد الشام والديار المصرية، ولكن سرعان ما تصدى لهم القوات المملوكية فيعودوا القهقري الى بلادهم. وان كانوا قد وصلوا الى غزة واجتاحوا دمشق بقيادة محمود غازان سنة 699 هـ (1299م) ، ثم اجتاحتها مرة أخرى سنة 803 هـ (1400م) بقيادة تيمور لNK وسفكوا دماء الكثيرين من سكان المدن الفلسطينية الأخرى، ولكنهم لم يدخلوا بيت المقدس فسلم من عبثهم وتدميرهم .

ان الهدف الحقيقي من وراء الهجمات الفرنجية وتحالفهم وتعاونهم مع التتار إعادة سيطرتهم على فلسطين وبيت المقدس بالذات. فغزوة القبارصة للاسكندرية سنة 767 هـ (1365 م) كان غرضها الوصول الى بيت المقدس عن طريق القاهرة. وبعدها فشل الفرنج حولوا نشاطهم نحو بلاد الشام، فهاجموا طرابلس ونهبوها، ثم هددوا بيت المقدس نفسه، فاجتاحت قواتهم يافا فرضة القدس على البحر المتوسط سنة 813 هـ (1410 م) . ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تسللت قوات فرنجية الى القدس نفسها عن طريق الحج، ولكنهم لم يستطيعوا تحقيق حلمهم القديم. ومن هنا جاء استحداث نيابة بيت المقدس، على رأسها أمير برتبة كبيرة، وتزويده بالرجال والعتاد للوقوف في وجه الخطر الفرنجي الذي ظل يهدد السواحل الشامية والمصرية معاً .

وهكذا أصبح في فلسطين ثلاث نيابات : نيابة القدس، ونيابة غزة، ونيابة صغد. ويحاول بعض الباحثين الغربيين واليهود منهم بشكل خاص اثبات أن القدس لم تلق الاهتمام الكافي في العصر الإسلامي كبقية المدن الأخرى، بدليل أن القدس لم تكن عاصمة لدولة ، أو مركزاً لحكم . ولكننا ثبت/عكس ذلك، فمدينة القدس كانت تتمتع بمكانة روحية لدى المسلمين، وكان الاهتمام بها كبيراً على مدى العصور، فبنوا المسجد الأقصى وقبة الصخرة أثراً خالداً ما زال حتى الوقت

الحاضر. أما في العصر الأيوبي والملوكي فقد لقيت المدينة المقدسة العناية والرعاية، فمهرها السلاطين والأمراء والأثرياء بالمنشآت العديدة، ثم جعل المالك فيها نيابة مستقلة وعينوا فيها الأمراء الكبار، وأصبحت «مركز حكم» كغيرها من المدن الهامة في بلاد الشام. بل فاقتها في الأهمية لمكانتها الروحية والدينية لدى الجميع، وتمكنت القدس من الوقوف بقوة وحزم في وجه الأخطار الفرنجية والتتارية معاً .

هذا إذا هو الاهتمام على النطاق الرسمي فما هو الاهتمام الشعبي بالمدينة المقدسة ؟ . ظلت القدس مركز إشعاع حضاري طيلة العصور الإسلامية، ولم تفقد ذلك الدور إلا في فترة الاحتلال الفرنجي (1099/492م - 1187/583م) أي مدة لا تتجاوز القرن من الزمان. وبعد التحرير عادت المدينة المقدسة تواصل رسالتها الدينية والانسانية والحضارية، باعتبارها مدينة للديانات السماوية الثلاث تمارس فيها شعائرها بحرية وتسامح إسلامي لم تشهده الديانات الأخرى في تاريخها. فأقيمت الخانات كخان الظاهر ببيرس خارج أسوار القدس (قرب باب العمود) ، والزوايا والأربطة والخانقاوات لخدمة الزائرين للمدينة المقدسة وتقديم المأوى والمآكل لهم مجاناً، حتى أن مضيفاً أقيم في بلد الخليل كان يقدم يومياً خمسمائة وجبة طعام لكل الزائرين بغض النظر عن دياناتهم .

ولتعلق أهالي الشام بالمدينة المقدسة يلاحظ أنه في موسم حج كل عام يحتشد في المدينة المقدسة أعداد كبيرة من المسلمين للاحتفال بعيد الأضحى وزيارة المسجد الأقصى وقبة الصخرة والحرم الإبراهيمي في الخليل، وكانوا من الكثرة بحيث يبلغ عددهم في بعض السنين عشرين ألفاً. ونتيجة لهذا العدد الهائل من الزوار تنشط حركة التجارة الداخلية في أسواق القدس والخليل، ويعم الخير عليها وعلى المنطقة المجاورة فيهرع الأهالي للتجار مع وفود الزائرين /

✳ ولم يقتصر الأمر على هذا الموسم (السياحة الداخلية) بل تجتمع في بيت المقدس أعداد أخرى كبيرة من النصارى واليهود لزيارة أماكنهم المقدسة، وللاحتفال بمواسمهم الدينية. فتقام لهم الأسواق الخاصة في يافا والرملة والقدس وبيت لحم تعود بالنفع على تجار تلك المدن والمتسببين من أهالي المناطق المجاورة. وكانت الدولة تعد لهم كل التسهيلات اللازمة وتوفر لهم الأدلاء السياحيين

والتراجع والحماية اللازمة .

ومن ناحية أخرى كان طلاب العلم من جميع أنحاء بلاد الشام والعالم الإسلامي يفتدون إلى المدينة المقدسة لأخذ العلم عن أسيادها وفي مدارسها العديدة. ونبغ من القدس العديد من العلماء في شتى صنوف العلم والمعرفة وصنفوا المؤلفات المختلفة/

ثم إن الوجود العربي في المدينة المقدسة بقي مستمراً طيلة قرون عديدة، فقد لاحظنا من خلال عرضنا السابق أن القدس عربية الاسم والهوية، فهي مدينة ييوسية كنعانية، وعندما احتلها اليهود بقي الوجود العربي فيها ولم ينقطع. بينما كان الوجود اليهودي طارئاً، فلاحظنا أن فترة حكمهم ووجودهم فيها كانت بسيطة فيما لو قورنت بالوجود العربي الذي استمر آلاف السنين. فاليهود تعرضوا للسبي والاضطهاد من الشعوب والدول التي احتلت بلاد الشام من البابليين والآشوريين والفرس والاغريق ثم الرومان والبيزنطيين. وبلغ هذا الاضطهاد درجة إلغاء الديانة اليهودية منها، وتحريم سكنى اليهود في المدينة المقدسة، كان آخر ذلك ما فعله هرقل في أواخر الحكم البيزنطي لبلاد الشام. حتى أن معاهدة الصلح التي وقعها صفرنيوس مع الخليفة عمر بن الخطاب نصت صراحة «أن لا يسكن اليهود القدس». أما عن ديمغرافية القدس فقد بلغ سكانها الأوج في القرنين السابع والثامن الهجري (الثالث عشر والرابع عشر الميلادي) فبلغوا آنذاك 40,000 نسمة فكثافتها السكانية كانت 56 شخصاً للدونم الواحد، وهي أعلى كثافة سكانية وصلتها المدينة المقدسة في العصور الوسطى. وسبب ذلك الاستقرار والهدوء اللذان نعمت بهما المدينة المقدسة كغيرها من بلاد الشام مما جعلها تنعم بدرجة من الثروة والازدهار والأمن. ثم للأهمية الخاصة التي أولاهها السلاطين الأيوبيون والمماليك فانعكس ذلك على كثافتها السكانية وهو أعلى رقم وصلته في تاريخها الوسيط .

وكان سكان القدس أخلاطاً من مسلمين ونصارى ويهود، أما النصارى فكانوا يشكلون نسبة كبيرة زمن الجغرافي المقدسي (القرن الرابع الهجري) ، وذكر أنهم كانوا أصحاب نفوذ في البيت المقدس. وذكر ناصر خسرو في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) عن وجود النصارى واليهود في بيت المقدس، وأن

اعداداً كبيرة منهم كانت تأتي من ديار الروم لزيارة الكنيسة والكنيشت. وقد ازداد عدد السكان النصارى بعد الغزو الفرنجي لبلاد الشام واحتلال المدينة المقدسة، وقتل الفرنج الالاف من سكان القدس المسلمين، قدرتهم المصادر الفرنجية بعشرين ألفاً، فيما قدرت المصادر الإسلامية العدد بسبعين ألفاً. بالاضافة الى أن أعداداً من السكان العرب النصارى هجروا القدس، فوليم الصوري يقول : إن مواطني المدينة من السوريين (السريان) كانوا في تناقص نتيجة للمحن والمصائب، حتى إن عددهم لم يكن شيئاً في المدينة. وشجع الفرنجة هجرة النصارى الوطنيين الى القدس، فتذكر المصادر ان قسماً من نصارى شرقي الأردن في وادي موسى والبلقاء وعمان نزحوا الى القدس ، بعد أن طلب الفرنج منهم ذلك بالاغراء والاكراه ووعدوهم بحياة أفضل، واستقبلوهم مع زوجاتهم وأولادهم وقطعانهم. وخصص لهم حي عرف «بمحلة المشاركة» لأنهم قدموا من منطقة البلقاء الواقعة شرقي القدس. وبعد تحرير بيت المقدس سنة 583 هـ (1187م) عاد السكان المسلمون الى القدس فزادت نسبتهم في العصر الأيوبي ومن ثم في العصر المملوكي، فأصبحوا يشكلون نسبة 70 - 80٪ من السكان .

ونصارى بيت المقدس كانوا في معظمهم من أصل عربي، بجانب عدد من نصارى الفرنج من دول أوروبا المختلفة والأحباش. أما أهم الطوائف المسيحية التي وجدت في القدس في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) فهي : اللاتين والسوريون (السريان) والمقصود بهم طائفة اليعاقبة، والأرمن، واليونان (الأرذثوكس) والنساطرة، والهنود، والأحباش، والجيورجيون. وقدرة الرحالة فيليكس فابري عدد النصارى في القدس سنة 888 هـ (1483م) بألف شخص. وعومل النصارى في القدس معاملة حسنة فمارسوا طقوسهم الدينية في حرية تامة، وكان السلاطين المماليك يصدرن المراسيم التي تدعو الى رعايتهم والعناية بهم. أما الوجود اليهودي في القدس في العصر الإسلامي فكان قليلاً، فقد لاحظنا أن معاهدة الصلح نصت صراحة أن لا يسكنوا في المدينة المقدسة، ومع ذلك تسللوا الى القدس عن طريق الخدمة في المسجد الأقصى، فكانوا يقومون بكنس أوساخ الناس في المواسم والضيف، وكنس المطاهر التي حول المسجد. بالاضافة الى أن قسماً منهم تخصص في عمل زجاج قناديل المسجد الأقصى وإضاءتها، وبلغوا زهاء

عشرين شخصاً، أعفوا من الجزية، ولكن الخليفة عمر بن عبد العزيز أنهى هذا الوجود اليهودي في المدينة المقدسة، فاستغنى عن خدماتهم .

ثم عاد اليهود الى القدس في العصور الإسلامية اللاحقة، فوجد عدد منهم في القرنين الرابع والخامس الهجري (العاشر والحادي عشر الميلادي) . كما وجد فيها كنيس (كنيشت) وكان اليهود يأتون لزيارة بيت المقدس من أنحاء متفرقة من العالم. وسكنوا في حارة خاصة أطلقوا عليها «حارة اليهود» . وفي فترة الاحتلال الفرنجي لبيت المقدس تعرض اليهود لتعسف الفرنج فهجروا بيت المقدس ومعظم أنحاء فلسطين. وامتد تعسف الفرنج لمقابر اليهود، فدمروا مقابرهم الثلاث، واستخدموا حجارتها في بناء بيوتهم. وفي منتصف القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) قدم الرحالة بنيامين اليهودي الأندلس الى فلسطين، وزار معظم مدنها وقدم لنا احصائية ديمغرافية لليهود. فوجد في بيت جبريل ثلاثة يهود، و12 يهودياً في بيت لحم، وفي الرملة 3 يهود، وفي يافا يهودياً واحداً، وعسقلان 200 يهودي، وفي طبرية 50 يهودياً، أما بيت المقدس فلم يجد فيها يهودياً واحداً. وكانت دمشق آنذاك تمثل أكبر تجمع يهودي في بلاد الشام، فوجد فيها 3000 يهودي. ثم بدأ اليهود يتسللون الى المدينة المقدسة بعد تحريرها من الفرنج، وزاد عددهم في العصر المملوكي، وامتدحتوا التجارة والصياغة والدباغة كعاداتهم، حتى أصبحوا في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) زهاء 500 يهودي فقط. وهو عدد ضئيل إذا ما قورون بسكان المدينة المقدسة الذين بلغوا في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) 8000 نسمة ، وكانت الديمغرافية في القدس قد تعرضت الى تغييرات في كثافتها نتيجة عوامل عديدة منها المجازر التي ارتكبها الفرنج في القدس في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ، والطواعين والأوبئة التي ضربت المدينة منذ منتصف القرن الرابع عشر حتى القرن السادس عشر الميلادي وأدت الى هذا التغيير في عدد السكان . فبلغ عدد سكان القدس في العصر المملوكي 40,000 نسمة وهو أعلى رقم وصلته في تاريخها الوسيط ثم أخذ في الهبوط. ففي القرن 8 هـ (14م) بلغ 20,000 نسمة . وفي منتصف القرن 9 هـ (15م) بلغ 8000 نسمة. وفي أواخر القرن 9 هـ (أواخر 15م) بلغ 3000 نسمة. ثم ارتفع في منتصف القرن 10 هـ (16م) فبلغ 8000 نسمة .

والخلاصة لم يكن الهدف من هذه الدراسة إثبات عروبة القدس ، فالقدس عربية الاسم والهوية والأصل. والعرب هم سكانها وبناتها منذ أقدم العصور. وذكرتها النصوص القديمة باسمها البيوسي (أوشاميم) ، كما ورد في وثيقة فرعونية تعود للقرن التاسع عشر قبل الميلاد. فاليهود احتلوا القدس من البيوسيين في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، واستقروا فيها لفترة محدودة من الزمن، ولكن هذا الوجود لم يكن مستمراً أو متصلاً. فقد تعرضوا الى السبي والنفي والابعاد من المدينة المقدسة لفترات طويلة كان آخرها في العصر الروماني والبيزنطي والفرنجي. فالوجود اليهودي في القدس كان طارئاً ولفترة قصيرة اذا ما قيست بالقرون الطويلة من تاريخها، لذلك لم يكن لهم وجود ديمغرافي مؤثر ولم يقدموا شيئاً حضارياً للمدينة المقدسة. فاليهود عندما استقروا في فلسطين، وجدوا الكنعانيين شعباً متحضراً له حضارته وعاداته وتقاليده ولغته ومعطياته الحضارية. أما اليهود فكانوا بداية لا حضارة لديهم، فتأثروا بالشعب الأكثر حضارة وأخذوا منه كل معطياته الحضارية والمدنية، حتى أن اللغة العبرية في معظمها كنعانية. ولم يخلف اليهود أي أثر ذا قيمة في المدينة المقدسة، فالهيكل الذي يزعمون أنهم بنوه في القدس لم يعد له أثر ولم يستطع الأثاريون تحديد مكانه .

إن الوجود العربي في القدس كما أوضحنا كان مستمراً طيلة العصور وحتى في فترة الاحتلال الفرنسي لها، ثم إن المخلفات الحضارية في القدس كانت وما زالت عربية تتمثل في كل جانب وحي من القدس . بل إنها أصبحت في العصر الإسلامي بؤرة إشعاع علمي وثقافي وحضاري يؤمها طلاب العلم والمعرفة من جميع أنحاء العالم الإسلامي، وفيها تأسست أول مدرسة في الإسلام بالمفهوم الذي عرفت به المدرسة فيما بعد .

ويحاول الباحثون اليهود الادعاء بوجودهم في القدس لذا نلاحظ انهم يكتبون عن الفترة القديمة التي كونوا فيها مملكة يهوذا في القرن الحادي عشر قبل الميلاد، ثم ينتقلون فجأة الى العصر الحديث متناسين ومتجاهلين العصور الأخرى من تاريخ القدس وبالأخص الفترة العربية الإسلامية الممتدة من القرن السابع الميلادي حتى الوقت الحاضر فالوجود العربي لمدة أربعة عشر قرناً حيث أولاهم خلفاؤهم وسلطينهم اهتماماً خاصاً ومهروها بالعديد من المنشآت العمرانية التي

ما زالت باقية الى الآن واليهود يعملون على طمسها وتجاهلها. وهم في ذلك يحاولون تزوير التاريخ واخفاء الحقائق، ولكي يحققوا هذا الهدف تراهم يسعون الآن الى هدم كل المنشآت العربية الإسلامية، ومن ثم إعادة تخطيط وتنظيم القدس حتى يزيلوا السمة العربية عنها وينهوا عروبته. وقد تنبه الباحثون العرب والمؤسسات العلمية العالمية لذلك، فأتخذت منظمة اليونسكو قراراً بجعل القدس تراثاً انسانياً عالمياً لا يحق لأي كان تغيير ملامحه أو ازالته، وعلى الانسانية جمعاء الحفاظ على هذا التراث، وهو تراث عربي إسلامي خالص. إن عروبة القدس لا جدال فيها ولا تحتاج الى برهان، وإن كنا قد كتبنا هذا البحث في عروبة القدس فلكي نوجه القارئ والباحث الى الحقائق التاريخية الثابتة .

1996/10/20 م



<http://www.al-maktabeh.com>

دور القاهرة ودمشق وبغداد في تحرير القدس الشريف والمحافظة على هويتها العربية

أصبحت الأمة العربية بصدمة عنيفة جراء نجاح الحملة الفرنجية الأولى بهذه السهولة، واستيلائها على الساحل الشامي وتأسيس مملكة بيت المقدس اللاتينية وبعض الإمارات الفرنجية الأخرى في شمال الشام. ولكن الأمة العربية تخلصت من هذه الصدمة بالصحو، أو الافاقة، التي حمل لواءها عماد الدين زنكي، ثم نور الدين محمود وأخيراً صلاح الدين الأيوبي، الذي كان النصر على يده في حطين وتحرير بيت المقدس، بعد أن حقق وحدة مصر والشام والعراق والجنوب العربي .

✱ هناك دراسات عديدة تناولت الأسباب التي أدت الى نجاح الحملة الفرنجية الأولى، منها : أسباب عسكرية واستراتيجية واجتماعية وسياسية واقتصادية. ولا أريد الخوض في تلك الأسباب سواء تلك المتعلقة بالقوى العربية الإسلامية، أو تلك المتعلقة بالحملة الفرنجية الأولى، ولكن الذي أود أن أؤكد هنا ان من أهم أسباب هزيمتنا في تلك المرحلة من تاريخنا الوسيط هو : التمزق الاقليمي، والصراع السياسي بين القادة والأمراء والحكام، والخلاف المذهبي الذي فتت الأمة، ومزقتها شر ممزق، وأنهك قواها البشرية والاقتصادية، فانعكس ذلك سلباً على القوات العسكرية التي لم تستطع الصمود أمام القوى الفرنجية الأقل عدة وعدداً، فهزمت شر هزيمة. ورغم المحاولات التي قام بها الأفضل بن بدر الجمالي وزير الدولة الفاطمية، وبعض الأمراء السلاجقة في بلاد الشام للوقوف في وجه هذا المد الأوروبي التوسعي الاستيطاني إلا أن جهودهم باءت بالفشل، فكرس الفرنجة وجودهم في فلسطين والساحل الشامي، وتوسعوا على حساب الأرض العربية وتحكموا بطرق المواصلات والاتصالات التي تربط بغداد ودمشق والقاهرة والجنوب العربي، فزادوا من تمزيق الأمة العربية وعملوا على أن يباعدوا بينها بتأسيسهم بارونية الكرك (في جنوب الأردن الحالي) ، وإمارة الرها في شمال الشام .

تركزت استراتيجية الفرنج على أن يمنعوا أي اتصال بين المسلمين، وأيقنوا ان بقاءهم في بلاد المشرق العربي الإسلامي مرهون ببقاء الفرقة والعداوة والبغضاء بين المسلمين، فعملوا كل ما في وسعهم كي يبقوه منشقاً متباعداً، لأن ذلك فيه حياتهم وبقاؤهم .

بدأت الافاقة العربية الإسلامية بظهور الأتابك عماد الدين زنكي على مسرح الأحداث ، فاستطاع بقوة وبسالة أن يحقق بطولات وانتصارات ضد الفرنج في الشمال، توجت بضربة حكيمة سددها الى امارة هامة من إمارات الفرنج في شمال الشام هي إمارة الرها .

وكانت الرها إحدى الإمارات الفرنجية الهامة، وهي أول إمارة فرنجية أسست في المشرق العربي الإسلامي، وكانت تقف حاجزاً يمنع أي اتصال بين حلب والموصل وتهدد بغداد دار الخلافة. فرأى عماد الدين زنكي أن يسدد أول ضرباته الى الرها، فأعد قواته وزحف بها الى الرها، فوصل إليها في جمادى الأولى من سنة 539 هـ/ نوفمبر (تشرين الثاني) 1144م . وأحكم حصاره عليها فدخلتها قواته في 26 جمادى الأولى بعد حصار دام ثمانية وعشرين يوماً .

وكان لتحرير الرها أصداء مهمة في كل من المعسكرين الإسلامي والفرنجي، فبتحرير الرها تغيرت نظرة المسلمين نحو الفرنج، فانحلت عقدة الخوف لديهم، وانتهت اسطورة القوة التي تشدق بها الفرنج، بالاضافة الى ان هذا الانتصار بث فيهم روح الجهاد والتضحية والنضال، فانطلق عماد الدين زنكي بعدها يهاجم القلاع والحصون الفرنجية في الشام، ثم عمل على توحيد الجبهة الإسلامية، لأنه لا نصر للمسلمين إلا بلم الصفوف والوقوف في جبهة قوية مترابطة ثابتة .

أما على الصعيد اللاتيني فكانت معركة الرها صدمة قوية أصابتهم في مقتل، حيث اهتز كيانهم وتزعزع، ولكي تبقى لهم الصورة القديمة في المنطقة، سارعت أوروبا وقد بلغتها نذر الهزيمة، فأرسلت حملة فرنجية جديدة، هي الحملة الفرنجية الثانية (542 - 544 هـ/ 1147 - 1149م) ، اشترك فيها ملوك أوروبا كل من لويس السابع ملك فرنسا، وكونراد الثالث امبراطور المانيا. ولكن هذه الحملة أخفقت في تحقيق أهدافها، وهكذا فشلت أوروبا في إعادة ميزان القوى لصالح الفرنجة في بلاد الشام. وقد اعتبر بعض الباحثين الأوروبيين المحدثين

هزيمة الفرنج في هذه الحملة نقطة تحول في تاريخهم في المشرق العربي والإسلامي .

ولم تطل الحياة بعماد الدين زنكي بعد تحريره الرها، فقد اغتيل بيد مماليكه سنة 541 هـ / 1146م ، وخلفه ابنه نور الدين محمود، فجعل من حلب قاعدة تحركاته ضد الفرنج، ونهج نهج أبيه في الجهاد والعمل على بناء جبهة إسلامية متحدة، ونجح في تحقيق هذا الهدف، بحيث يمكن القول انه بظهور نور الدين على مسرح الأحداث تبدأ مرحلة جديدة من مراحل اليقظة العربية الإسلامية وصفحة مشرقة في تاريخهم. فضم دمشق الى أتابكيته وانتزعها من مجير الدين ابق بن محمد بن بوري بن طغتكين وذلك في صفر من سنة 549 هـ / نيسان (أبريل) 1154م . وبضم دمشق الى الدولة الزنكية أصبحت ممتلكات نور الدين تمتد من الرها والجزيرة شمالاً الى شرقي الأردن جنوباً، وبذلك أصبح جاراً عنيداً لمملكة بيت المقدس اللاتينية. وهو أمر كانت تخشاه وتحسب حسابه، وهو وجود قوة عربية إسلامية منظمة تجاورها، ويعبر ابن الأثير عن مخاوف الفرنج من وقوع دمشق في أيدي النوريين بقوله : «وكان أبغض الأشياء الى الفرنجة أن يملك نور الدين دمشق لأنه يأخذ حصونهم ومصانعهم وليست له، فكيف اذا أخذها وقوي بها» .

ولم تكن مصر آنذاك بمعزل عن سير الأحداث وتطورها، فما يكاد ينتصف القرن السادس الهجري، حتى يبرز على الساحة في القاهرة الوزير الصالح طلّاح ابن رزيك الذي كان يدرك تمام الادراك أن لا خلاص من الخطر الفرنجي إلا باتحاد دمشق والقاهرة . ومن هذا المنطلق رتب المراسلات الى نور الدين محمود زنكي، كي يكونا يداً واحدة في الغزو والجهاد . فوجهت مصر جانباً كبيراً من نشاطها الحربي الى منطقة جنوب الأردن الحالي (بارونية الكرك والشوبك) التي كانت تقف في وجه حركة المواصلات والاتصالات بين الشام ومصر وبلاد الرافدين والجزيرة العربية، فجرد إليها طلّاح ابن رزيك حملة في سنة 552 هـ / 1157م وصلت الى نهر الأردن والى الشوبك، فأغارت قواته على أعمالها وفتكوا بالفرنج في تلك المناطق وعادوا الى القاهرة محملين بالغنائم الكثيرة بالاضافة الى عدد من الأسرى .

بقي النشاط المصري موجهاً الى الفرنج في هذه المنطقة مستهدفاً بذلك فك الطوق وتقليل السيطرة التامة لهم على هذا المعبر الحيوي لمصر والشام والحجاز، ففي السنة الثانية 553هـ/1158م ، انفذ ابن رزيك حملة الى جنوب الأردن الحالي حيث وادي موسى ، وهاجمت قواته حصن الدميرة (الوعيرة) ، أحد القلاع الفرنجية القائمة هناك وحاصرته ثمانية أيام ، ولكنها لم تتمكن منه ، فرفعت الحصار وتحولت الى حصن الشوبك وشدت عليه الحصار إلا أنها لم تستطع اقتحامه فعادت القوات المصرية الى القاهرة. ولما شعر الفرنج بوطأة هذا النشاط العسكري المؤثر من جانب الفاطميين، أرسلوا رسلهم في السنة الثانية 554 هـ / 1159م بالهدايا الى القاهرة طالبين الهدنة والموادعة .

ولا أكون مغالياً اذا قلت : ان حركة البيقظة العربية الإسلامية قد بدأت في آن واحد في كل من دمشق على يد نور الدين زنكي، والقاهرة على يد الصالح طلائع ابن رزيك الذي عرف بأبي الغارات، بسبب كثرة ما شنه من غارات في البر والبحر على الفرنج . وكانت هذه البيقظة قد أجمت قبل ذلك في الموصل من شمال العراق على يد عماد الدين زنكي، وهكذا فان البيقظة العربية الإسلامية قد بدأت في شمال العراق ثم امتدت الى الشام ومصر فيما بعد .

غير إن سوء الأحوال بمصر، واشتداد النزاع بين الوزراء على السلطة شغل أولي الأمر فيها عن متابعة الخطة التي بدأها ابن رزيك، فخفت حركة الغزو من جانب الديار المصرية في حين قدر لهذه الحركة أن تنشط في بلاد الشام بفضل شجاعة ومثابرة البطل نور الدين محمود، الذي وفق كل التوفيق في توحيد الصفوف وشحن الهمم، والهيب المشاعر القومية والدينية بين أهل الشام .

أدى الصراع بين الوزيرين شاور وضرغام الى تدخل في شؤون مصر من جانب النوريين في دمشق، والفرنج في مملكة بيت المقدس اللاتينية، وانتهى هذا الصراع بأن تمكن أسد الدين شيركوه قائد قوات نور الدين محمود زنكي، من الدخول الى مصر للمرة الثالثة ومعه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي، فطرده قوات عموري ملك مملكة بيت المقدس اللاتينية من مصر في ربيع الثاني سنة 564 هـ / كانون ثاني (يناير) 1169م ، وبذلك أخفق الفرنج من الاستحواذ على مصر. ونتيجة لذلك استوزر الخليفة الفاطمي العاضد أسد الدين شيركوه ولقبه بالملك

المنصور أمير الجيوش. إلا أن أسد الدين شيركوه توفي بعد توليه الوزارة بشهرين وخمسة أيام، فعهد الخليفة العاضد بالوزارة الى صلاح الدين يوسف بن أيوب، وذلك في 25 جمادى الآخر 564 هـ/ 26 آذار (مارس) 1169 م ، وتلقبته بالسيد الأجل الملك الناصر .

وما أن تم لصلاح الدين الظفر بمنصب الوزارة، حتى سعى لوضع حد للدولة الفاطمية وتم الحلم الذي طالما راود نور الدين بوحدته مصر والشام، وإن لم يكن قد تحقق تماماً إلا بعد وفاة العاضد. وكانت مصر دعماً قوياً لقوة نور الدين الناهضة، وفي صراع المسلمين وجهادهم ضد الفرنج، فهي «معظم دار الإسلام وحلوبة بيت مالهم» ، وبذا تغير ميزان القوى في المنطقة وأصبح لصالح المسلمون . توفي نور الدين زنكي فجأة في شوال 569 هـ/ 15 أيار (مايو) 1174 م ، وتعرض العالم الإسلامي لخسارة كبيرة بموته، وأصبحت الأخطار تهدد بلاد الشام لافتقار الدولة الى رجل قوي يسير دفة الأمور بحكمة وروية . كما إن الوحدة التي طالما عمل آل زنكي على تحقيقها تعرضت لامتحان رهيب، فقد حدث الانقسام بين القادة النوريين الذين تنازعوا أمور ولده الصغير الصالح اسماعيل. وقد خشي صلاح الدين من انهيار وحدة الصف العربي الإسلامي، وكان يرى في نفسه انه الوارث الحقيقي لدولة نور الدين وسياسته التي تهدف الى تحقيق الوحدة العربية الإسلامية والى جهاد الفرنج. وكانت قد وردت عليه رسائل من أهالي دمشق يستحثونه على سرعة الحركة الى دمشق خوفاً من الانقسام وطمع الأمراء المتحكمين بالملك الصالح جاء في بعضها : «فانه ان استمرت ولاية هؤلاء تفرقت الكلمة المجتمعة، وضاعت المناهج المتسعة، وانفردت مصر عن الشام، وطمع أهل الكفر في بلاد الإسلام» ، وهكذا لم يتردد صلاح الدين في القيام بدوره الذي قدر له والعمل على تدعيم الوحدة العربية الإسلامية والقضاء على الفرقة، فخرج من مصر متوجهاً الى دمشق فاستقبل استقبالاً طيباً وتسلم أبواب قلعة دمشق في 29 ربيع الأول سنة 570 هـ/ 28 تشرين أول (أكتوبر) 1174 م .

أظهر صلاح الدين حنكة سياسية رائعة، فأظهر انه لم يأت طمعاً في الملك، وإنما قدم لحفظ الملك الصالح اسماعيل من الطامعين، ولتوحيد الكلمة فأعلن: «والله ما جيت الى ها هنا شرهاً ولا طمعاً في الدنيا وفي مصر كفاية، وما جيت إلا

لاستنفذ هذا الصبي». كذلك أظهر حرصه على وحدة المسلمين في مثل هذه الظروف الحرجة التي مرت بها بعد وفاة نور الدين فصرح قائلاً : «انا لا نؤثر للإسلام وأهله إلا ما جمع شملهم، وألف كلمتهم». ومن هذا المنطلق بدأ صلاح الدين يعمل على توحيد الجبهة العربية الإسلامية وتدعيمها .

ومن دمشق بدأ صلاح الدين يثبت أقدامه، ويحكم قبضته، وكان أول عمل حرص على القيام به توحيد بلاد الشام تحت سلطانه، وتكوين جبهة عربية إسلامية متحدة تضم مصر والشام وشمال العراق والحجاز واليمن، ولتحقيق ذلك قام صلاح الدين ببناء قوة عسكرية متماسكة، وقضى على سلطان الأمراء المسيطرين في حمص وحماة وغيرها، وبقيت مشكلة الموصل عقبة في طريق الوحدة المنشودة .

كان صلاح الدين يعي استراتيجية الفرنج التي تهدف الى تقسيم الجبهة العربية الإسلامية ومنع وحدتها والقضاء على مصادره الاقتصادية، وإضعاف قواتهم العسكرية كما وعى صلاح الدين الظروف الداخلية والخارجية وتعامل معها بذكاء وقدرة واقتدار . فأول عمل قام به هو استيلائه على العقبة سنة 566هـ / 1170م وبذا أصبح الطريق مهياً وميسراً للقوات العسكرية والقوافل التجارية للتنقل بين القاهرة ودمشق، ثم اتبع ذلك بإرسال قواته الى اليمن بقيادة أخيه شمس الدولة تورانشاه الذي تمكن من الاستيلاء عليها سنة 569هـ / 1173م ، وأصبحت ممتلكاته تضم بلاد الشام ومصر والحجاز واليمن، وهو بهذا قضى على التدخل الفرنجي في تجارة البحر الأحمر وسواحل الحجاز، ثم حول تجارة المشرق عبر عدن واليمن الى ميناء عيذاب جنوب مصر، بينما كانت السفن سابقاً تسير عبر البحر الأحمر لتفرغ حمولتها إما في القلزم (السويس الحالي) أو في أيلة (العقبة) . وبذا أصبح هذا الشريان التجاري الدولي تحت سيطرته المباشرة فضمن صلاح الدين مورداً اقتصادياً متميزاً كي يرفد حركة نضاله وجهاده ضد الفرنج وليحقق مشروع النهضوي الوحدوي المنشود .

وقد اتبع صلاح الدين استراتيجية عسكرية تجاه الفرنج، تتلخص باجهااد العدو وضربه في أي وقت وأي مكان، كي يبقى العدو في حالة استنفار دائمة، وبذا يستطيع انهاكه وتحطيم ارادته القتالية، والتأثير النفسي عليه. وفي نفس الوقت كان

لا يجد حرجاً في عقد المعاهدات والهدن مع عدوه، وكانت هذه المعاهدات والهدن تمليها الظروف التي كان يمر بها والتي تتطلبها المرحلة. فكان صلاح الدين مرناً في استراتيجيته فكانت متغيرة غير ثابتة، وقد حددت هذه المعاهدات والهدن بالسنوات والشهور والأيام، وكثيراً ما كان الفرنج ينقضون الاتفاق، ليعودوا ويعقدوا اتفاقاً جديداً وهكذا. ومن هنا تظهر لنا عبقرية صلاح الدين الدبلوماسية، فقد اتبع استراتيجية النفس الطويل، لاستنزاف العدو وانهاك قواه، كي يتمكن هو نفسه من فرض زمان ومكان المعركة الفاصلة عندما تنتهي الظروف الداخلية والعالمية من حوله. وكانت مشكلة الوحدة هي الهم الأكبر، وأخيراً تمكن من ضم الموصل الى دولته سنة 581 هـ/1186م وأصبح عسكرها يشكلون جزءاً من جيشه فهو يقول: (وقد حصل لنا من صاحب الموصل ومن جميع من بالجزيرة وديار بكر الطاعة والسكة والخطبة، وعمت الهيبة والرغبة، والعزائم الى الجهاد في سبيل الله نوازع، وقد زالت العوائق وارتفعت الموانع).

فالبناء والاعداد للمشروع النهضوي الوحدوي استمر مدة سبعة عشر عاماً، وهذا المشروع كي تكتب له مقومات النجاح، كان لا بد له من قوة عسكرية قوية تحمي مكتسباته وتحقق طموحاته، واقتصاد كثيف يضمن من موارده الكثيرة استمرار هذا المشروع، ثم وحدة الصف العربي الإسلامي والقضاء على كل التناقضات التي يمكن أن تسيء الى هذا المشروع أو تجهضه من الداخل، بالاضافة الى القيادة الواعية المخلصة لأهداف الأمة وكرامتها وعزتها. ولم يغفل صلاح الدين القوى العالمية من حوله، وقد تمثلت هذه بالقوتين الأعظم آنذاك وهما الدويلات الايطالية، والدولة البيزنطية. فالدويلات الايطالية استطاع أن يعقد معها اتفاقات تجارية نظراً لارتباط مصالحها التجارية مع دولته. يقول صلاح الدين: «ومن هؤلاء الجنوبيين الذين يسربون الجيوش - البنادقة - البياشنة - الجنوبية. كل هؤلاء تارة لا تطاق ضراوة ضرهم، ولا تطفأ شرارة ضرهم، وتارة يجهزون سفاراً يحتكمون على الإسلام في الأموال المجلوبة، وتقصر عنهم يد الحكام المرهوبة. وما منهم الآن إلا من يجلب الى بلدنا آلة قتاله وجهاده، ويتقرب إلينا بإهداء طرائف أعماله وبلاده، وكلهم قد قررت معه المواصفة وانتظمت معه المسألة، على ما نريد ويكرهون، ونؤثر ولا يؤثرون».

فكانت الدولة الأيوبية تسيطر على التجارة الدولية آنذاك القادمة من الشرق الأقصى عبر عدن والبحر الأحمر، فبالبحر الأحمر أصبح في عهده بحيرة عربية إسلامية، وكان البحر الأحمر أهم شريان تجاري دولي في تلك الحقبة من الزمن. وكانت الدويلات الإيطالية وأوروبا لا تستطيع الاستغناء عن هذه التجارة القادمة عبر الموانئ المصرية والشامية. وهكذا فقد كانت معظم التجارة الدولية تحت السيطرة العربية الإسلامية المباشرة، وقد أعطى هذا لصالح الدين امتيازاً خاصاً، وللمنطقة العربية أهمية كبيرة. أما القوة الثانية وهي الدولة البيزنطية فقد خطبت وده وأرسلت إلى صلاح الدين السفارات، بعدما شعرت بقوته المتزايدة، وأدركت عبث التحالف مع مملكة بيت المقدس اللاتينية. فقد كانت مصالحها تقضي باستمرار استقرار الأمور بينها وبينه سيما وقد ارتبط بروابط ودية مع السلاجقة المصاقبين لحدودها، وكانوا يشكلون أكبر خطر عليها. فعقد البيزنطيون معاهدة نصت على المسالمة والعلاقات الحسنة بين الطرفين، ذكر صلاح الدين ذلك في إحدى رسائله عن الامبراطور البيزنطي فقال: «فمنهم صاحب القسطنطينية، وهو الطاغية الأكبر، والجبار الأكبر، وصاحب المملكة التي أكلت على الدهر وشربت ... وجزت لنا معه غزوات بحرية ومناقلات ظاهرية وسرية، وكانت له في البلاد مطامع منها أن يجني خراجاً، ومنها أن يملك منا فجاجاً ... فأخذنا والله الحمد بكظمه، وأقمناه على قدمه، ولم نخرج من مصر إلى أن وصلتنا رسله في جمعة واحدة في نوبتين بكتابين كل واحد منها يظهر فيه خفض الجناح وإلقاء السلاح، والانتقال من معاداة إلى مهادة، ومن مناضحة إلى مناضحة». فصلاح الدين ضمن تحييد أكبر قوتين يمكن أن تتدخلتا إلى جانب الفرنج في بلاد الشام، فهو بسياسته وكياسته حقق أهداف الأمن القومي لدولته.

ولم يقف الفرنج في بلاد الشام مكتوفي الأيدي أمام هذا المشروع النهضوي الوحدوي الذي عمل صلاح الدين جاهداً لبنائه وإرساء جذوره وأصبحت الوحدة التي نشدها صلاح الدين حقيقة واقعة، تتمثل بوحدة مصر والشام وشمال العراق والحجاز واليمن والتي أطلقنا عليها (وحدة صلاح الدين). لذا عملوا على ضرب هذه الوحدة، وذلك بأن قام ارنات (رينو دي شاتيون) أمير بارونية الكرك وزعيم الجبهة الفرنجية المتشددة (الصقور) بحملتين فرنجيتين عبر الأحمر والحجاز

وصولاً الى مكة والمدينة وجنوب الجزيرة العربية (عدن واليمن) . فكانت الأولى برية سنة 577 هـ/1181م ، والثانية برية وبحرية معاً سنة 578 هـ/ 1182م. وكان هدف هاتين الحملتين اللتين انطلقتا من بارونية الكرك والعقبة، الاستيلاء على المقدسات الإسلامية في الحجاز وهدم الكعبة ونبش قبر الرسول، واحتلال عدن واليمن وقطع المورد الاقتصادي الذي يرفد حركة الجهاد التي أعلنها صلاح الدين وتمويل جيوشه. وهم بذلك يتحدثون المشاعر الإسلامية ويعملون على إنهاك صلاح الدين اقتصادياً، الذي يعني بالتالي إنهاكه عسكرياً. وقد شجع ارناط على ذلك فرسان الداوية تلك الفرقة (أو الحزب) ، الأكثر تشدداً وتزمتاً وتطرفاً دينياً ، والأكثر حنقاً على العرب والمسلمين . وهم بعملهم هذا يسعون جاهدين لضرب المشروع النهضوي الوحدوي، الذي أصبح حقيقة على الأرض العربية، وقوة يحسب حسابها، وهذا ما كان يخشاه الفرنج والغرب الأوروبي، فهم يعملون دوماً على ابقاء هذه الأمة ممزقة متشاحنة متباغضة لأن فيه بقاؤهم على الأرض العربية. قبل صلاح الدين التحدي وتمكن بقواته وأسطوله من القضاء على هاتين الحملتين، وبذلك فوت على الفرنج فرصة تحقيق هدفهم. بالاضافة الى أن هذا التحدي ألهم المشاعر العربية والإسلامية، وأخذ الجميع يتطلعون ويطلبون من القائد السير بهم الى النصر. إلا أن صلاح الدين ورغم استفزازات ارناط وغيره من قادة الفرنج لم يقبل أن يدخل معهم في معركة فاصلة، إلا بعد أن يحدد هو الزمان والمكان .

ولكي يحقق صلاح الدين وحدة القوات العسكرية قام في سنة 580 هـ / 1184م بحشد قواته من الجزيرة وحلب ومصر وسورية مجتمعة، ولعله كان ينظر بعينه الثاقبة ورأيه الحكيم ان لا بد من وجود تآلف وتانس بين قواته المتعددة : مصرية وجزرية ومشرقية وشامية. لقد أراد بها أن تكون تجربة أولى لوحدة القوات وسرعة حشدتها وتدريبها على طبيعة العدو وطبيعة الأرض التي سوف يحاربون عليها، انها مقدمات للمعركة الفاصلة التي ينتظر خوضها عندما تحين اللحظة التي يحددها هو نفسه ، وسار بقواته الى الكرك (جنوب الأردن الحالي) ولكنه لم يتمكن منها. ومع ذلك فان وحدة صلاح الدين لم تتحقق كما أراد فأمر الموصل ما زال قائماً والخلاف بينه وبين صاحبها مستمر الا أن تطور الأحداث

وتسارعها أحدث تقارباً بين الطرفين فعقد صلاح الدين مع الموصل صلحاً سنة 581 هـ / 1185 م ، وخطب له على منابرها ، وضربت السكة باسمه ، وأصبح عسكرها يشكلون جزءاً من جيشه اذا ندبهم لقتال الفرنج، وقد عبر صلاح الدين عن ذلك بقوله : «وقد حصل لنا من حاصب الموصل ومن جميع من بالجزيرة وديار بكر الطاعة والسكة والخطبة، وعمت الهيبة والرهبية والعزائم الى الجهاد في سبيل الله نوازع، وقد زالت العوائق، وارتفعت الموانع» . وعاد صلاح الدين الى دمشق في مستهل عام 582 هـ / 1186 م بعد أن ألف بين قلوب المسلمين، ووحد الجبهة العربية الإسلامية من العراق والجزيرة والشام ومصر، وهكذا أصبحت وحدة صلاح الدين تضم : مصر والشام والموصل (شمال العراق) واليمن والحجاز .

كانت القاهرة ودمشق قد عاشتا معركة تحرير بيت المقدس من الفرنج فعلاً وعملاً منذ أن احتلت المدينة المقدسة، وزاد دورهما في معركة التحرير بعد أن تولى صلاح الدين السلطة وأصبحت مصر وبلاد الشام تحت سلطانه. وهنا نطرح السؤال التالي، ما هو دور بغداد في معركة التحرير؟؟ ، لم تكن بغداد في منأى عن الأحداث التي مرت بها بلاد الشام واكتوت بناها المدينة المقدسة، فعلى المستوى الرسمي حاول الخليفة العباسي تقديم المساعدة، ولكنها لم تكن في المستوى المطلوب، فقد كان الخليفة يزرع تحت وطأة تسلط السلاطين السلاحقة على الحكم، فعندما وصلت أخبار احتلال المدينة المقدسة، ووصول وفود الشاميين اليه، أرسل الخليفة المستظهر بالله إلى السلطان السلجوقي بركياروق يطلب منه نجدة أهل الشام. فأعد بركياروق قواته وأرسلها الى الشام، فوصلت طلائعها الى الأنبار، ولكن الخلاف نشب بين بركياروق وأخويه ووقعت بينهم حروب ووقائع، كل ذلك حال دون أن تحقق هذه القوات أهدافها، فعادت أدرجها تاركة بلاد الشام وبيت المقدس بيد الفرنج ومع ذلك فقد كان الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله يرقب تطور أحداث بلاد الشام فما أن اعتلى صلاح الدين دست السلطنة وضم دمشق ومعظم البلاد الشامية الى دولته حتى سارع فأرسل إليه في عام 570 هـ / 1175 م رسولاً يحمل الخلع بالتقليد والتمليك والتحكيم والتفويض ، وتوقيع من الديوان بالسلطنة ببلاد مصر والشام . وكان هذا الاجراء دعماً قوياً لصلاح الدين ، فقد

أصبحت له سلطة شرعية وروحية ممنوحة له من الخليفة العباسي، فدعم هذا من مكانته وقوى همته لتحقيق وحدة المسلمين ومواصلة الجهاد ضد الفرنج، ويؤكد هذا على ان بغداد لم تكن في منأى عن الأحداث الشامية، بل عاشتها على المستويين الرسمي والشعبي، أما الموصل فقد أخذت على عاتقها مهمة قيادة اليقظة العربية الإسلامية التي بدأها عماد الدين زنكي ومن ثم ابنه نور الدين محمود، ومن بعده صلاح الدين الذي حمل راية الجهاد حتى تحقق النصر على يديه .

وبعد أن تأكد صلاح الدين من أن الظروف أصبحت الى جانبه أعلن «الجهاد الأعظم» ، واستنفر القوات من جميع أنحاء دولته من : الموصل، والجزيرة، واربيل، وديار بكر، وماردين، ومصر والشام. وأخذت جموع العساكر تتقاطر الى دمشق من كل فج، وظل صلاح الدين مقيماً بدمشق حتى انتهت سنة 582هـ ، واكتملت الاستعدادات وقدم الجنود من منطقة الشمال والمتطوعة من كل قرية ومدينة وبادية، عندئذ خرج صلاح الدين من دمشق في مستهل عام 583 هـ/ نيسان (ابريل) 1187م ، وقد غلبت على نفوس رجاله شهوة القتال في سبيل الله، ونذر كل مقاتل أن يبذل نفسه وروحه لله. ثم تقدم صلاح الدين الى خسفين (قرية في حوران) ومنها الى الاقحوانة (شمال الأردن الحالي تشرف على بحيرة طبرية) ، فأقام فيها خمسة أيام ثم ترك الجند أثقالهم بالاقحوانة، وتقدموا الى غور الأردن فاجتازوا نهر الأردن الى طبرية عند جسر السد جنوبي بحيرة طبرية تماماً وأخيراً اصطدمت قوات صلاح الدين بالفرنج في حطين، وتم النصر للمسلمين في يوم السبت 25 ربيع الآخر 583 هـ / 4 تموز (يوليو) 1187 م . وتمكنوا من سحق قوات الفرنج وإبادة أكبر جيش حشدوه في الشام «فمن عاين القتلى قال : ماثم أسير ، ومن عاين الأسرى قال: ماثم قتيل» . وبعد معركة حطين تابع صلاح الدين تحرير مدن الساحل الفلسطيني وأخيراً اصطفت قواته حول مدينة بيت المقدس، وتمكن منها بعد حصار دام أربعين يوماً ودخلها بالآمان يوم الجمعة 27 رجب 583 هـ / 12 تشرين أول (أكتوبر) 1187م . وهكذا حررت القدس من أسارها الذي دام ما يقارب القرن من الزمان ، وكان يوماً مشهوداً، فرفعت الأعلام الإسلامية على أسوارها ، وأعيدت المدينة المقدسة الى حضيرة الحكم العربي الإسلامي بعد غربة طويلة .

نلاحظ مما سبق إن الموقف العربي الإسلامي لم يكن موحداً قبل وصول الغزاة الفرنج ، وقد أدى ذلك الى النصر الذي لم تتوقعه القوات الغازية بهذه السهولة، فالمؤرخ الأوروبي سميل يقول في كتابه الحروب الصليبية : «إن انتصار الصليبيين في الحملة الأولى على القدس واحتلالها ، كان سببه انهم لم يواجهوا جيشاً إسلامياً في ساحة القتال ، لاخلال الزحف والاقتراب ، ولا خلال الحصار» ، فاستراتيجية الفرنج اعتمدت منذ البداية على تفتيت القوى العربية الإسلامية، والاستفادة من الصراعات الداخلية بين القوى الإسلامية في منطقتنا العربية. فأى وحدة كانت تزيد من خطورة مشاكل الفرنج العسكرية، وتقلل من نجاحاتهم الحربية. فالقوى السلجوقية المحلية لم تصدق النية في مقاومته، بل ساعدت خلافاتها على تثبيت وجوده، وترسيخ جذوره، وتحقيق أهدافه وأطماعه بسهولة ويسر .

وهكذا نستطيع القول : بأنه في ظل التمزق الذي عاشه العرب والمسلمون في أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ، غابت الارادة العربية الإسلامية الموحدة ، فجاء صلاح الدين وقبل التحدي الفرنجي الأوروبي ، ووحده الارادة العربية الإسلامية : السياسية والعسكرية ، ووجهها ضد الخطر الفرنجي الاستيطاني والقوى الداعمة له، وسخر كل امكانات الأمة في مواجهة العدو وتحرير الأرض، فالمعركة الفاصلة كانت بعد أن اطمأن صلاح الدين الى بناء الجبهة العربية الإسلامية، ووحدة مصر والشام والعراق والحجاز واليمن التي نشدها أصبحت حقيقة واقعة. ومن هنا فان دور القاهرة ودمشق وبغداد في تحرير بيت المقدس رسمياً وشعبياً كان واضحاً. وإنما نقرر في هذا المقام بأن القدس لم تتحرر إلا بالوحدة، وان وحدة صلاح الدين هي أمل أمتنا في استعادة مقدساتها وكرامتها، فلنعد الى التاريخ نستقرئ أحداثه ونحللها، ففي تلك الأحداث عبر ودروس .

1997/1/11 م

الوجود الفرنجي في بيت المقدس استهدف خطره احتلال جنوب الأردن والمقدسات الإسلامية في الحجاز ...

كانت مصلحة الفرنج في بيت المقدس تقضي احكام سيطرتهم على الطرق الهامة، والعمل على عزل مصر عن الشام - وهي استراتيجية وعاما الفرنج وعملوا الكثير من أجل تحقيقها - لأن اجتماع مصر والشام فيه خطر على وجودهم. ثم العمل على مراقبة طرق التجارة الدولية عبر سيناء، وجنوب شرقي الأردن، والوصول الى البحر الأحمر الشريان التجاري الهام، وأخذ نصيبهم من هذه التجارة الدولية .

فكان أول توسع للفرنج خارج فلسطين في منطقة جنوب شرقي الأردن باعتبارها همزة الوصل بين أجزاء العالم العربي : الشام والعراق ومصر والجزيرة العربية. بالاضافة الى أهميتها الاقتصادية المتمثلة بحقولها الخصبة، وللتدخل في تجارة البحر الأحمر، وتحويل جزء من تجارته الى مملكة اللاتين في القدس، ثم وقوعها على التخوم الشمالية لبلاد الحجاز والمقدسات الإسلامية في مكة والمدينة. ففي سنة 509 هـ (1115م) احتل بنغديون الأول الشوبك ، فجدد بناء قلعتها وسماها مونتريال (Montroal) وشحنها بالرجال والعتاد . وفي السنة التالية 510 هـ (1116م) وصل بقواته الى ايلة (العقبة) على البحر الأحمر، فاحتل المدينة وأعاد بناء القلعة البحرية ذات الاصول البيزنطية في جزيرة فرعون (Le Graye) . أما في الساحل فقد أعاد بناء القلعة الإسلامية وحصنها، وشحن القلعتين بالاسلحة والرجال ثم عاد الى القدس، وبذا أصبح لمملكة بيت المقدس وجود في البحر الأحمر، ناهيك عن سيطرتها على حركة الاتصال والمواصلات بين دمشق والقاهرة والحجاز .

وضع لصلاح الدين منذ الوهلة الأولى لتسلمه السلطة في مصر ان رحلة

نضاله وجهاده ضد الفرنج رحلة طويلة ومريرة، وان هذه الرحلة بحاجة الى موارد اقتصادية مستمرة. فوضع خطة تستهدف جعل البحر الأحمر تحت سيطرته المباشرة، باعتباره أهم شريان للتجارة الدولية. ولما كان للفرنج منذ أوائل القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) حضور بحري في البحر الأحمر ، تتدخل في تجارته وتحول جزءاً منها الى القدس، بالاضافة الى الضرر الذي سببوه للحجاج والمسافرين عبر أيلة وقد أكد ذلك ابن قاضي شهبه بقوله : «ونال الحجاج من الفرنج الموجودين في أيلة ضرر كبير» . لذا قام صلاح الدين بتجهيز حملة الى أيلة في ربيع الآخر سنة 566 هـ (كانون أول 1170م) ، واستباح القوة الموجودة فيها أسراً وقتلاً ، ثم قام باعداد قوة من ثقات رجاله في أيلة وقواهم بالسلاح والمؤن والذخيرة .

ولكي ندلل على أهمية أيلة في فم خليج العقبة ، وعلى الضرر الذي سببه الوجود الفرنجي في البحر الأحمر المتمثل بالأسطول الحربي الذي كان مصدر ازعاج وخطر على سواحل الحجاز والأماكن المقدسة، يمكننا ملاحظة ذلك من رسالة كتبها القاضي الفاضل الى الخليفة العباسي في بغداد على لسان صلاح الدين سنة 570 هـ (1174م) ، ذكر فيها أسباب فتح أيلة فقال : «ومنها قلعة بثغر أيلة، كان العدو قد بناها في بحر الهند، وهو المسلك منه الى الحرمين واليمن، وغزا ساحل الحرم، فسبى منه خلقاً، وخرق الفرنج في ذلك الجانب خرقاً، فكادت القبلة أن يُستولى على أصلها، ومساجد الله أن يسكنها غير أهلها، ومقام الخليل صلوات الله عليه أن يقوم به من ناره غير برد وسلام، ومضجع الرسول شرفه الله أن يتطرقه من لا يدين بما جاء به الإسلام، ففتح الله هذه القلعة، وصارت معقلاً للجهاد وموثلاً لسفّار البلاد، وغيرهم من عبّاد العباد» .

ثم ان صلاح الدين عمل على اتمام مخططه بأن أرسل أخاه شمس الدولة تورانشاه سنة 569 هـ (1173م) لفتح اليمن، ومهما قيل عن أسباب فتح اليمن من المؤرخين المحدثين. فباعثادي ان أهم أهدافها خوفه من نشاط الفرنج في البحر الأحمر، وهو نشاط بدأ منذ فترة تسبق سنة 566 هـ ، ثم للسيطرة على تجارة الهند والصين واليمن، التي وجه اليها صلاح الدين اهتماماً خاصاً، لما تعود به على بلاده من مكاسب اقتصادية، كان في أشد الحاجة اليها. ويتضح ذلك من رسالة

فاضلية تشرح أسباب فتح اليمن فتقول : «والكلمة هناك بمشيئة الله الى الهند سارية» ، ثم لارتباط صلاح الدين بعلاقات تجارية مع بعض الدويلات الايطالية كالبندقية، وجنوا، وأمالفى، وبيزا، فهو يؤكد في رسالته السابقة عن تلك العلاقات قائلاً، «وما منهم إلا من يجلب الى بلدنا آلة قتاله وجهاده، ويقترّب الينا باهداء طرائف أعماله وبلاده، وكلهم قد قررت معه المواصفة وانتظمت معه المسألة على ما نريد ويكرهون» ، وهكذا تمكن صلاح الدين من أن يضمن سلامة الطريق التجاري الى الهند، سيما وقد وضع يده على مداخل البحر الأحمر سواء عند خليج العقبة باحتلال آيلة، أو عند خليج السويس التي تدخل في نطاق ملكه، وعلى مخرج هذا البحر عند باب المندب وثمر عدن، وبذا جعل صلاح الدين من البحر الأحمر بحيرة عربية إسلامية .

ورغم كل هذه الاحتياطات التي قام بها صلاح الدين، إلا أن الفرنج في بيت المقدس، ظلوا يتطلعون الى الأهمية الاقتصادية للبحر الأحمر والجنوب العربي والحجاز، فقام أرناط (رينو دي شاتيون) بارون الكرك بأعداد حملتين عسكريتين كان الهدف منهما الوصول الى الحجاز واليمن والسيطرة على تجارة البحر الأحمر وتحويلها الى مملكة اللاتين في القدس. ومنع هذا الشريان الحيوي عن صلاح الدين، وضرب المسلمين في أقدس مقدساتهم باحتلال مكة والمدينة. فكانت الحملة الأولى سنة 577 هـ (1181م) ، ووصل الى تيماء حيث ظفر بقافلة تجارية متجهة من دمشق الى الحجاز، فنهبها وأسر من تمكن من أسره ، ثم واصل سيره الى المدينة، بقصد الاستيلاء على تلك النواحي، ونهب المسجد النبوي والاستيلاء على ما فيه من كنوز وذخائر . ولكن نائب صلاح الدين بدمشق ابن أخيه عز الدين فرخشاه ابن شاهنشاه بن أيوب هاجم بارونية الكرك، فلما علم أرناط بذلك عاد مسرعاً للدفاع عن بارونيته. فأخفقت هذه الحملة لطول الطريق وبعد خطوط امداداته وقسوة الطبيعة من حوله، إلا أنه استفاد من هذه الحملة، فقد ألم بطبيعة بلاد العرب وأدرك ان الأمر جدير بمعاودة الكرة مرة أخرى .

وكانت الحملة الثانية في سنة 578 هـ (1182م) ، وتعتبر هذه الحملة من أجراً الحملات الفرنجية وأخطرها، فقد استهدفت غزو الأراضي المقدسة في الحجاز ومحاولة الوصول الى عدن للسيطرة على تجارة البحر الأحمر وأكد ذلك أبو شامة

من رسالة فاضلية فهو يقول : « كان الفرنج قد ركبوا من الأمر نكرا، وافتضوا من البحر بگرا، وعمروا مراكب حربية شحنوها بالمقاتلة والأسلحة والازواد، وضربوا بهاسواحل اليمن والحجاز وأثخنوا وأوغلوا في البلاد، واشتدت مخافة تلك الجوانب». فأعد أرناط أسطولاً من خمسة غربان، وعدد كبير من المراكب الصغيرة، فهاجم أيلة ففتحها، ثم حاول اقتحام جزيرة فرعون مفتاح خليج العقبة ولكنه فشل، فترك سفينتين تحاصرانها. ثم سار بقواته نحو الجنوب، ومنعاً لأي تدخل من جانب القوات البرية القادمة من دمشق والقاهرة، سير قوة تسير براً بحذاء الساحل الى تبوك. فكانت حملة أرناط والحالة هذه برية وبحرية وهذا ما أكده الذهبي بقوله : « وفيها سار الفرنج بحراً وبراً لتملك الحجاز». ولكن صلاح الدين أرسل لقائد أسطوله حسام الدين لؤلؤ يطلب منه مواجهة أرناط وحماية الحجاز، فأعد حسام الدين أسطولاً نقله على الجمال، وأعد تركيبه في أيلة، وتعقب الأسطول الفرنجي الذي وصل الى عيذاب ميناء مصر على البحر الأحمر فنهب وسبى الكثير، ثم واصل سيره جنوباً فهاجم سواحل تهامة واليمن، وأحرق ما صادفه من سفن تجارية، وأشاع الذعر والخوف في تلك النواحي. ثم ما لبث أن غير خط سيره فاتجه شمالاً الى زابغ قرب جدة، ثم توجه الى الحوراء في مواجهة المدينة، فترك ستفنه هناك، وسار براً الى المدينة، ولكن الأسطول الأيوبي أحرق سفن أرناط في الحوراء وأسر من فيها، ثم ركب حسام الدين خلف أرناط الذي فرّ هارباً الى تبوك ومنها الى الكرك. وبذلك فشلت هذه الحملة التي استغرقت زهاء أربعة شهور من شعبان حتى ذي القعدة 578 هـ. وقد أكدت هذه الحملة أن الخطر الفرنجي في فلسطين يمكن أن يطال الجزيرة العربية والمقدسات الإسلامية في مكة والمدينة، وأن البحر الأحمر كممر تجاري وبحري كان هدفاً استراتيجياً حيويًا لمملكة بيت المقدس اللاتينية.

1997/4/16 م

ممارسات صلاح الدين الأيوبي في تحقيق الأمن القومي

تذكر دائرة المعارف الاجتماعية ان الأمن القومي يعني «قدرة الدولة على حماية قيمها الداخلية من التهديدات الخارجية»، أما دائرة المعارف البريطانية فتقول: «إن الأمن القومي هو حماية الأمة من خطر السيطرة بواسطة قوة أجنبية». وهكذا فإن مفهوم الأمن القومي يرتبط بالقدرة العسكرية، والتهديدات التي تواجهها الدولة، ومن هنا ينبغي دعم القوة العسكرية وتطويرها، لتكون الدولة قادرة على مواجهة أي تهديد عسكري خارجي، أخذين بعين الاعتبار تهئية الظروف المناسبة اقتصادياً واجتماعياً، لتحقيق الاهداف والغايات التي تعبر عن الرضا العام في المجتمع .

كذلك فإن مفهوم الاستراتيجية القومية يرتبط بالأمن القومي والسلامة القومية، وهو يشير الى تعبئة وتنظيم وتوجيه موارد المجتمع، وهو مفهوم متغير متطور تبعاً لتغير الظروف والموارد والاختيارات المتاحة، وهو في ثناياه يتضمن الاستراتيجية السياسية، والاقتصادية، والعسكرية، وكل من هذه الاستراتيجيات تسعى الى تحقيق الأهداف القومية، وهي جميعها مترابط فيما بينها، لأنها تسعى لتحقيق نفس الأهداف، ولكن في مجالات مختلفة .

من هذا المنطلق يمكننا تفسير الأمن القومي في عهد صلاح الدين، فهو في حقيقته لا يبتعد كثيراً عن هذه المفاهيم :-

١. من الناحية العسكرية

ان قضية التمزق والخلافات التي كانت مستشرية بين قادة المسلمين قبيل الهجمة الفرنجية الأولى وأثناءها، عبر عنها العديد من المؤرخين المعاصرين، وفي مقدمتهم ابن القلانسي، فنقل لنا صورة حية لما آلت اليه العلاقات العربية الإسلامية بقوله سنة 495 هـ (1101م) : «وفي هذه السنة وردت الأخبار بما

أهل خراسان والعراق والشام عليه من الخلاف المستمر والشحناء والحروب والفساد وخوف بعضهم من بعض، لاشتغال الولاة عنهم وعن النظر في أحوالهم بالخلف والمحاربة» ، فكان للتفرقة والصراعات الداخلية أثرها ، فجبن الجميع في مواجهة الخطر الداهم، وكان بمقدور المسلمين آنذاك تحطيم القوات الفرنجية الغازية، إذا علمنا ان قواتها لم تكن بالكثرة التي يقف أمامها العرب والمسلمون عاجزين متخاذلين . وهذا ما أثار تعجب المؤرخ أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي فقال : «والعجب ان الفرنج لما خرجوا الى المسلمين كانوا في غاية الضعف من الجوع وعدم القوت، حتى إنهم أكلوا الميتة ، وكانت عساكر الإسلام في غاية القوة والكثرة، فكسروا المسلمين وفرقوا جموعهم» .

أما موقف الدولة الفاطمية من الحملة الفرنجية الأولى ، فقد أثار تساؤل العديد من المؤرخين العرب والمسلمين، حتى إن ابن الأثير شكك في موقف الأفضل ابن بدر الجمالي وزير الدولة الفاطمية، ونعته بالتواطء فقال : «إن أصحاب مصر لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكنها واستيلاءها على بلاد الشام الى غزة، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم، ودخول الاقسييس الى مصر وحصرها، فخافوا وأرسلوا الى الفرنج يدعونهم الى الخروج الى الشام ليملكوه» . أما المؤرخ أبو المحاسن فقد تساءل بعد ذلك بقرون عديدة قائلاً : «ولم ينهض الأفضل باخراج عساكر مصر، وما أدري ما كان السبب في عدم اخراجه مع قدرته على المال والرجال» . وفي موضع آخر يقول : «ومن هذا يظهر عدم اكتراث أهل مصر بالفرنج من كل وجه» .

نلاحظ مما سبق ان الموقف العربي الإسلامي لم يكن موحداً ، وقد أدى ذلك الى النصر الذي لم تتوقعه القوات الغازية بهذه السهولة. فالمؤرخ الأوروبي سميل يقول في كتابه الحروب الصليبية : ان انتصار الصليبيين في الحملة الأولى على القدس واحتلالها، كان سببه أنهم لم يواجهوا جيشاً إسلامياً في ساحة القتال، لاخلال الزحف والاقتراب، ولا خلال الحصار .

ولما كان الخطر الفرنجي لم يستهدف قطراً بعينه أو دولة بعينها، بل كان عاماً شاملاً ، وإن الاحتياطات والخطط التي وضعها صلاح الدين كانت لحماية الشرق الإسلامي والأمة العربية الإسلامية . فمن هنا جاء مفهوم الأمن القومي

عاماً شاملاً لجميع الأقطار والبلدان. وبذا تأكدت لنا حقيقة انه لا يمكن لبلد عربي تحقيق أمنه بمعزل عن أمن البلدان العربية الإسلامية كلها. فالأمن القومي آنذاك كان يستند في الأساس على وحدة الأمة العربية الإسلامية والمصير الواحد، لذا عمد صلاح الدين الى تحقيق وحدة مصر والشام والعراق والحجاز واليمن، وعبر عن ذلك عند قدومه الى دمشق فقال: «انا لا نؤثر للإسلام وأهله إلا ما جمع شملهم وألف كلمتهم». وقوله: « والله ما جيت الى ها هنا (دمشق) شرهاً ولا طمعاً في الدنيا وفي مصر كفاية». ولم يخض المعركة الفاصلة إلا بعد أن بنى قوة عسكرية متماسكة وقضى على كل معارضة داخلية، فبعد أن انتهى من مشكلة الموصل قال: «وقد حصل لنا من صاحب الموصل ومن جميع من بالجزيرة وديار بكر الطاعة والسكة والخطبة وعمت الهيبة والرغبة، والعزائم الى الجهاد في سبيل الله نوازع، وقد زالت العوائق وارتفعت الموانع».

وهكذا نستطيع القول: بأنه في ظل التمزق الذي عاشه العرب والمسلمون في أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، غابت الإرادة العربية الإسلامية الموحدة، فجاء صلاح الدين وقبل التحدي الفرنجي الأوروبي، ووحده الإرادة العربية الإسلامية: السياسية والعسكرية، ووجهها ضد الخطر الفرنجي الاستيطاني والقوى الداعمة له، وسخر كل امكانيات الأمة في مواجهة العدو وتحرير الأرض، فالمعركة الفاصلة كانت بعد أن اطمأن الى الجبهة الداخلية وقضى على كل معارضة.

ب. من ناحية السياسة الخارجية .

السياسة الخارجية مرآة تنعكس عليها أهداف الأمن القومي من ناحية، ثم هي أداة تحقيق هذه الأهداف من ناحية أخرى. فصالح الدين لم يهمل الموقف الدولي المحيط، فوجه همه لقوتين من حوله كان لهما شأن في أمور الشرق آنذاك: الأولى جمهوريات الايطالية، وقد استطاع أن يعقد معها اتفاقيات تجارية نظراً لارتباط مصالحها التجارية مع الدولة الأيوبية. أما القوة الثانية فكانت الدولة البيزنطية، التي خطبت وده، وأرسلت اليه الرسل والسفارات بعدما شعرت بقوة المتزايدة، وأدركت عبث التحالف مع مملكة بيت المقدس اللاتينية، فكانت مصالحها

تقضي باستقرار الأمور بينها وبينه، سيما وقد ارتبط بروابط ودية مع السلاجقة المصاقيين لحدودها ، وكانوا يشكلون أكبر خطر عليها. فعقدت مع صلاح الدين معاهدة نصت على المسألة والعلاقات الحسنة بين الطرفين. ذكر صلاح الدين ذلك في إحدى رسائله عن الامبراطور البيزنطي فقال : «فمنهم صاحب قسطنطينية وهو الطاغية والجبار الأكبر، وصاحب المملكة التي أكلت على الدهر وشربت ... وجزت لنا معه غزوات بحرية، ومناقلات ظاهرية وسرية، وكانت له في البلاد مطامع منها أن يجبي خراجاً، ومنها أن يملك منها فجاجاً ... فأخذنا والله الحمد بكظمه، وأقمناه على قدمه، ولم نخرج من مصر، الى أن وصلتنا رسله في جمعة واحدة في نوبتين بكتابين كل واحد منهما يظهر فيه خفض الجناح، والقاء السلاح، والانتقال من معاداة الى مهادة ومن مناضحة الى مناضحة» . فصلاح الدين ضمن تحييد أكبر قوتين يمكن أن تتدخلتا الى جانب الفرنج في الشام، فهو بسياسته هذه حقق أهداف الأمن القومي لدولته، ولم تأت سنة 582 هـ (1186م) إلا وكانت الجبهة العربية الإسلامية كاملة مستعدة، ووحدة مصر والشام والعراق والحجاز واليمن التي نشدها صلاح الدين أصبحت حقيقة واقعة .

جـ من الناحية الاجتماعية

والأمن القومي يعني قدرة الدولة على حماية قيمها الداخلية من التهديدات الخارجية والمحافظة عليها، وتوجيهها لخير الأمة والوطن. فصلاح الدين وعى كل التناقضات الاجتماعية والعقائدية التي كانت مستشرية في المجتمعات الإسلامية آنذاك، فحد من غلوها ووظفها لخدمة القضية الأولى وهي تحرير الأرض والمقدسات. وهو يوضح ذلك برسالة فاضلية قائلاً : «وأصلحنا ما في الشام من عقائد معتلة، وأمور مختلة، وآراء فاسدة، وأمراء متحاسدة، وأطماع غالبية، وعقول غائبة ... والمراد الآن هو كل ما يقوي الدولة، ويؤكد الدعوة، ويجمع الأمة، ويحفظ الألفة، ويضمن الزلفة، ويفتح بقية البلاد ... وبالجمل فبالشام لا ينتظم أمره بمن فيه، وفتح بيت المقدس ليس له قرن يقوم به ويكفيه، والفرنج فهم يعرفون منا خصماً لا يمل الشر حتى يملوا» .

ومن هنا فان صلاح الدين استغل التحدي للشعائر الإسلامية، وقيام أرنات

بغزو مكة والمدينة ، ومحاولته هدم المقدسات فيها ، ثم لنقضه المعاهدات ، ونهبه للقوافل التجارية المارة جوار بارونيته في الكرك ، حتى انه عندما ذُكر بالمعاهدة المبرمة بينه وبين صلاح الدين ، تهجم على الأسرى قائلاً : «قولوا لمحمدكم يخلصكم» . فلما بلغ الخبر صلاح الدين أقسم أن يقتله بيده عقاباً على ما اقترفته يده ، ولهاجمته الديار المقدسة ونقضه المعاهدات والعهود ، فأعلن «الجهاد الأعظم» ، واستنفر القوات من جميع أنحاء دولته: من الموصل ، والجزيرة ، وإربل وديار بكر وماردين ومصر والشام . وبعدما كملت الاستعدادات خرج بقواته لملاقاة الفرنج ، وقد غلبت على نفوس رجاله شهوة القتال في سبيل الله ، ونذر كل مقاتل أن يبذل نفسه وروحه في سبيل الوطن . وكان النصر حليفهم في حطين ، بسبب التآلف والتحالف والمحبة والايمان بالهدف المشترك الذي خرجوا من أجله . وهكذا تمكن صلاح الدين من حماية القيم الروحية والاجتماعية ، والمحافظة على الشعائر الإسلامية من خطر الغزو الفرنجي ، سواء في فلسطين أو في الحجاز ، وسخر كل هذه القيم وفي مقدمتها «الجهاد» نحو الهدف الأكبر ، وهو تحرير الأرض وطرد المحتل .

خاتمة :

إن مفهوم الأمن القومي يحتل موقع الصدارة في أي تفكير استراتيجي ، بل يمكن القول انه بؤرة هذا التفكير ، ومفهوم الأمن القومي في تلك الحقبة من التاريخ نستطيع استقراءها من الأحداث التاريخية ، ولو انها لم تذكر صراحة، فمفهوم الأمن القومي في عهد صلاح الدين كان يتركز حول المفهوم العسكري والاستراتيجي ، وكذا المفهوم الاقتصادي والسياسي والاجتماعي . وترتب على المفهوم العسكري المفهوم الوجداني ، وحشد طاقات الأمة لمواجهة الخطر الفرنجي ، الذي وقفت خلفه الأطماع الأوروبية في السيطرة على الشرق العربي الإسلامي .

ويرتبط مفهوم الأمن القومي لدى بعض الباحثين المحدثين بالقوة العسكرية والقدرة على مجابهة الأخطار والغزوات ، وقبول التحدي ، وهذا ما فعله صلاح

الدين، فقد قبل التحدي، وبنى قوة عسكرية استطاعت تحرير الأرض، وفرض وجودها في الساحة الشامية، وتحرير القدس، التي شكل ضياعها واحتلالها المأ كبراً لدى العرب والمسلمين، وسعوا حثيثاً من أجل تحريرها، وتطهير الساحل الشامي كله من الوجود الأجنبي .

1997/4/22 م



بالوحدة وبالوحدة فقط حرر بيت المقدس

كانت الدولة الفاطمية في أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) قوية من النواحي العسكرية والاقتصادية، فوليم السوري مؤرخ مملكة بيت المقدس اللاتينية عبر عن ذلك قائلاً، «فان خليفة مصر أكثر المسلمين قوة بسبب ثروته الكبيرة وقواته العسكرية». ولكن هذه القوة لم تسخر لمقارعة الخطر الفرنجي، فقد كان للأفضل بن بدر الجمالي أطماعه السياسية في بلاد الشام، بالإضافة الى طموحاته في السيطرة على السلطة داخل الدولة الفاطمية نفسها. لذا لم يول الحملة الفرنجية الأولى جل اهتمامه، وساعد موقفه المتخاذل على نجاح هذه الحملة، وتحقيق أكثر مما كانت تتوقعه. وقد أثار موقفه هذا تعجب المؤرخ أبي المحاسن بعد ذلك بقرون عديدة حيث يقول : «ولم ينهض الأفضل باخراج عساكر مصر، وما أدري ما كان السبب في عدم اخراجه مع قدرته على المال والرجال». ويقول في مكان آخر : «والعجب أن الفرنج لما خرجوا الى المسلمين كانوا في غاية الضعف من الجوع وعدم القوات، حتى إنهم أكلوا الميتة، وكانت عساكر الإسلام في غاية القوة والكثرة، فكسروا المسلمين وفرقوا جموعهم». ونتيجة لذلك فبعد فتح انطاكية غير قادة الحملة خططهم، وقرروا المضي قدماً في احتلال الساحل الشامي وبيت المقدس هدفهم الرئيسي منذ خروجهم من أوروبا .

وهكذا نستطيع القول، بأن قادة الفرنج قد عرفوا تماماً أهمية القاهرة في أي عمل عسكري يخوضونه ضد المسلمين في بلاد الشام، وكان اخراج القاهرة من المعركة وتحييدها أثره في الانتصارات السريعة التي حققها الفرنج في الساحل الشامي وفلسطين ، وستبقى هذه الاستراتيجية طيلة الوجود الفرنجي في بلاد الشام. ففي أواخر العصر الفاطمي نرى أن عموري ملك مملكة بيت المقدس يسعى حثيثاً للاستيلاء على مصر وابعادها عن الدولة النورية. ولكن قوات نور الدين محمود زنكي بقيادة شريكوه تمكنت من احباط هذا المخطط ، وحقق نصراً أكيداً

على الفرنج وقوات شاور وزير مصر المتعاون مع الفرنج، مما مهد فرصة لصلاح الدين الأيوبي، لأن يتقلد الوزارة للخليفة الفاطمي العاضد، وأن يمكس بزمام المبادرة، واجهاض كل مخطط فرنجي موجه الى مصر. ثم قيامه باسقاط الخلافة الفاطمية في أول جمعة من المحرم سنة 567 هـ (10 أيلول 1171م) ، معلناً قيام دولة جديدة (الدولة الأيوبية) ، تلك الدولة التي قامت على مبادئ مقاومة الخطر الفرنجي، وتوحيد القوى العربية الإسلامية، وتسخيرها جميعاً في سبيل الهدف النبيل .

انتزع نور الدين محمود زنكي مدينة دمشق من صاحبها مجير الدين أبوق ابن محمد بن بوري بن طفتكين في 20 صفر سنة 549 هـ (25 نيسان 1154م)، وبذلك أصبح نور الدين جاراً عنيداً لملكة بيت المقدس، وهو أمر كانت تخشاه وتحسب حسابه، وهو وجود قوة إسلامية منظمة تجاورها. ويعبر ابن الأثير عن مخاوف الفرنج بقوله : «وكان أبغض الأشياء الى الفرنج أن يملك نور الدين دمشق، لأنه يأخذ حصونهم ومعقلهم وليست له، فكيف اذا أخذها وقوي بها» . وهكذا بدأ نور الدين يضغط على مملكة بيت المقدس، استمراراً لحركة الجهاد التي بدأها والده عماد الدين زنكي بعد استيلائه على الرها .

تعرض العرب والمسلمون لخسارة عظيمة بموت نور الدين زنكي في 11 شوال 569 هـ (15 أيار 1174م) ، وأصبحت الأخطار تهدد بلاد الشام، لافتقار الدولة الى رجل قوي يسير دفة الأمور بحكمة وروية. كما ان الوحدة التي طالما عمل آل زنكي على تحقيقها تعرضت لامتحان رهيب، فقد حدث الانقسام بين القادة النوريين الذين تنازعوا أمور ولده الصغير الصالح اسماعيل. وقد مهد هذا الخلاف الى أن يتطلع عموري ملك مملكة بيت المقدس الى مهاجمة دمشق، فسار بقواته الى بانياس، فلقيه شمس الدولة ابن المقدم نائب دمشق بقواته، ولكنه ضعف أمام الفرنجة، فراسل عموري بالهدنة، فأجابه بالقبول، وتعهد ابن المقدم بتقديم مبلغ من المال اليهم. فعاد عموري الى القدس، ولكنه مرض أثناء عودته وتوفي في 12 ذي الحجة 569 هـ (11 تموز 1174م) .

استاء صلاح الدين من تصرف قادة دمشق وحلب وتحكمهم بالملك الصالح اسماعيل بن نور الدين من جهة، وضعفهم أمام الفرنج من جهة أخرى. وخشي في

نفس الوقت من انهيار وحدة الصف العربي الإسلامي الذي جهد عماد الدين ومن بعده نور الدين في تحقيقه. وكان يرى في نفسه انه الوارث الحقيقي لدولة نور الدين وسياسته التي تهدف الى تحقيق الوحدة العربية الإسلامية والى جهاد الفرنج. وكتب إليه رجال دمشق يدعونه على سرعة الحركة الى دمشق خوفاً من الانقسام وطمع الأمراء المتحكمن بالملك الصالح جاء فيها : «فانه ان استمرت ولاية هؤلاء، تفرقت الكلمة المجتمعة، وضاعت المناهج المتسعة، وانفردت مصر عن الشام، وطمع الفرنج في بلاد الاسلام». ولم يتردد صلاح الدين في القيام بدوره الذي قدر له، والعمل على تدعيم الوحدة، والقضاء على الفرقة، فاستقبل استقبالاً طيباً، وتسلم من ابن المقدم قلعة دمشق في 29 ربيع أول 570 هـ (28 تشرين أول 1174م) و وبدأ يعمل على توحيد الجبهة العربية الإسلامية وتدعيمها .

وفي سنة 573 هـ (1177م) ، حاول صلاح الدين أن يجعل من مصر نقطة انطلاق لعملياته العسكرية ضد الفرنج، فخرج منها متجهاً الى فلسطين، فحاصر بغدوين الرابع في عسقلان، ثم شق طريقه نحو الرملة ويافا واقتربت قواته من بيت المقدس، فشاع الذعر في نفوس أهلها، وأخذت حاميتها تتأهب للانسحاب منها أو التحصن بقلعتها. ولكن جنود صلاح الدين انشغلوا بالغنائم، وتفرقوا في تلك النواحي، ولم يتوقعوا هجوماً مباغتاً من الفرنج. وفي اللحظة التي فقد فيها صلاح الدين الاشراف المباشر على جزء كبير من جيشه، هاجم بغدوين الرابع قوات صلاح الدين على غرة عند تل الصافية الواقعة الى الجنوب الشرقي من الرملة ، فتكبد صلاح الدين خسائر جسيمة، وانهزم هزيمة فادحة، وتشتت قواته. فعاد الى مصر عبر الصحراء ، وقد لاقى من الشدة والمتاعب في طريق عودته الكثير ، ووصل الى القاهرة سالماً .

كانت معركة تل الصافية نقطة تحول في استراتيجية صلاح الدين ضد مملكة بيت المقدس اللاتينية، فقد وضح له صعوبة اتخاذ مصر نقطة انطلاق لهجماته ضد الفرنج، لبعده المسافة وصعوبة تأمين خط الامداد لقواته، لذلك قرر الانتقال الى دمشق واتخاذها قاعدة لنضاله، وعملياته العسكرية، فهو يشرح ذلك في رسالة فاضلية للخليفة العباسي في بغداد فيقول : «وعرفنا أن بيت المقدس ان لم يتيسر الاسباب لفتحه، وأمر الفرنج ان لم يجرد العزم في قلعه ، وإلا ثبتت عروقه،

واتسعت على أهل الدين خروقه، وكانت الحجة لله قائمة، وهمم القادرين بالعقود آثمة، وإفلاً لم نتمكن بمصر منه مع المسافة وانقطاع العمارة، وكلال الدواب، وإذا جاورناه كانت المصلحة بادية، والمنفعة جامعة، واليد قادرة، والبلاد قريبة، والغزوة ممكنة، والميرة متسعة، والخيل مستريحة، والعساكر كثيرة، والجموع متيسرة، والأوقات مساعدة». ويؤكد صلاح الدين هذه الاستراتيجية في موقع آخر فيقول: «فانا ما بقي لي دار إلا هي (دمشق) حتى يقضي الله بيننا وبين الفرنج وهو خير الحاكمين».

وبانتقال صلاح الدين كلياً إلى دمشق يأخذ زمام المبادرة العسكرية ضد الفرنج، لتبدأ مرحلة جديدة من الجهود العسكرية المكثفة على الصعيد الفرنجي، وليعمل جاهداً لتوحيد الجبهة الداخلية في مصر وبلاد الشام وشمال العراق. ثم انطلق بقواته من دمشق إلى فلسطين، فاصطدمت قواته مع الفرنج في حطين، وكان النصر حليفه في 25 ربيع الآخر 583 هـ (4 تموز 1187م) وتمكن من سحق قوات الفرنج وابتداء أكبر جيش حشدوه في الشام «فمن عاين القتلى قال: ما ثم أسير، ومن عاين الأسرى قال: ما ثم قتيل». واعتبر هذا النصر مفتاح الفتوح الإسلامية، فسارت قوات صلاح الدين نحو الساحل الفلسطيني ففتحته من عكا إلى عسقلان، ثم توجه إلى بيت المقدس وشدد عليه الحصار، ودخلت قواته المدينة المقدسة بالآمان في يوم الجمعة 27 رجب 583 هـ (12 تشرين أول 1187م). من هنا يتضح لنا مقدار الأهمية التي كانت لدمشق في محاربة الفرنج، فهي تنفرد بمزايا استراتيجية وعسكرية وجغرافية واقتصادية لم تتوفر للقاهرة، فنقل صلاح الدين قيادته إليها، واتخذها نقطة الانطلاق ليوم النصر الكبير وتحرير القدس.

1997/4/2 م

الأردنيون وفلسطين ... الكرك وأميرها الناصر داود يحررون القدس الشريف

هو داود بن عيسى بن محمد بن أيوب الملك الناصر الولي المهاجر صلاح الدين أبوالمفاخر ابن المعظم عيسى. ولد بدمشق في 17 جمادى الأولى سنة 603هـ (1206م) ، وأمه أم ولد تركية الأصل، عاشت فترة في مدينة الكرك، وعرفت بشدة البأس ورباطة الجأش ، فأحبها أهل الكرك ، وتمكنت بمساعدتهم سنة 626 هـ (1229م) من مقاتلة قوات الكامل محمد التي أرسلها لمحاصرة الكرك، وانتزاعها من الناصر داود، فأبقت المدينة لولدها .

نشأ الناصر داود في حياة أبيه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق، ملازماً للاشتغال بالعلوم على اختلافها، وشارك في كثير منها (وحصل منها طرفاً جيداً) . وعاش حياة العلماء وأحبهم، وارتحل الى العراق في طلب العلم، فسمع في بغداد من جماعة من العلماء نذكر منهم : محمد بن أحمد القطيعي وغيره. وسمع بالكرك من ابن اللتي، وشمس الدين عبد الحميد الخشروشاهي، وسيف الدين علي الأمدى، وأجازه أبو الحسن المؤيد بن محمد الطوسي وغيره من العلماء. ويذكر ابن شاعر الكتبي بأنه (كان حنفي المذهب عالماً فاضلاً مناظراً، ذكياً له اليد البيضاء في الشعر والأدب) .

وكان لنشأة الناصر داود أثر كبير في حبه للعلم وتعلقه بالعلماء، فوالده المعظم عيسى كان عالماً فاضلاً متفنناً في الفقه والنحو وغيره ، قرب العلماء وأكرمهم، ولازمه العديد منهم فكانوا (لا يفارقونه في سفر ولا حضر) . وكان يجلس الى جماعة الفقهاء وبياحثهم في مسائل لغوية وفقهية، ويجزل لهم العطاء. وكان أيضاً يحث ابنه الناصر داود على طلب العلم واقتناء الكتب النفيسة، بل كان حريصاً على اهدائه بعضها، فالبيونيني يذكر ان الناصر داود كان يحب اقتناء الكتب النفيسة فيقول : (حصل منها جملة كثيرة ذهبت بعد وفاته) .

وقد اصطحب المعظم عيسى ابنه الناصر داود في العديد من أسفاره وخروبه

ضد الفرنج، كما أرسله في مهمات رسمية (سفارات) الى بعض الملوك والأمراء، فصارت لديه دراية بأمور الدولة، وازدادت حنكته وتجربته السياسية .

الانقسام في صفوف البيت الأيوبي :

شب النزاع بين المعظم عيسى صاحب دمشق وأخيه الكامل محمد سلطان مصر، وأدى هذا التصدع الى اضعاف الجبهة الإسلامية . فانكح قواها وزادها تمزيقاً، وكان سبباً في ضياع بيت المقدس. فقد حاول المعظم عيسى صاحب دمشق التوسع شمالاً على حساب امارة حماة، فاحتل معرة النعمان وسلمية، ثم حاصر حماة نفسها. فلما وصلت أنباء ذلك الى أخويه الكامل محمد صاحب مصر، والأشرف موسى صاحب سنجار وإخلاط، والبلاد الشرقية. خشياً من ازدياد نفوذه، فابن واصل يقول على لسانهما : أن أخذ المعظم عيسى حماة (تعدى الى غيرها وأطمعته نفسه بالاستيلاء على البلاد كلها) . لذا هداه وأرغمه على العودة الى دمشق. وفي نفس الوقت عقدا اتفاقاً مفاده انتزاع دمشق من المعظم عيسى. إلا أن المعظم تمكن من كسب أخيه الأشرف الى جانبه، بعد أن تحالف مع جلال الدين خوارزم شاه صاحب مملكة عراق العجم وأذربيجان ومظفر الدين بن زين الدين كوكبوري صاحب أربل. وأصبحوا يشكلون خطراً على أملاكه، فاضطر الى مسالمة أخيه المعظم وانضم الى جانبه، وأتى الى دمشق معلناً ذلك .

إلا أن الكامل محمد كانت له أطماعه في بلاد الشام. فقد عمل حثيثاً على انتزاع دمشق من أخيه المعظم، وبسط نفوذه على بلاد الشام جميعها. إزاء ذلك خشى مغبة هذا التحالف، بالاضافة الى انه أخذ يشك في اخلاص جنوده الى درجة اتهامهم بممالاة أخيه المعظم . فبحث عن حليف يستطيع الوقوف الى جانبه، ولم يجد غير الأجنبي فأرسل سفارة الى الامبراطور فردريك الثاني The Emperor Frederik II. في صقلية على رأسها الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ مستنجداً به، وإعداداً اعطاه بيت المقدس، وما بيد المسلمين من الساحل، ان قدم بقواته لمساعدته فلقبت هذه الدعوة استحسان الامبراطور وأعاد سفارة الكامل بسفارة أخرى محملة بالهدايا النفيسة، ووعد بالحضور الى فلسطين، ثم أخذ في الاستعداد لاعداد حملة صليبية جديدة الى الديار المقدسة .

تسليم بيت المقدس للصليبيين :

في خضم هذه الأحداث، توفي الملك المعظم عيسى في ذي القعدة سنة 624 هـ (تشرين ثاني 1227م) ، وتولى مملكة دمشق ابنه الملك الناصر داود ولم يتجاوز العشرين عاماً. وهكذا أصبحت الساحة خالية للكامل محمد. فعمل بسرعة على تحقيق أطماعه في بلاد الشام وضمها إلى سلطانه. فافتعل خلافاً مع الناصر داود، إذ طلب منه قلعة الشوبك ليجعلها خزانة له، فامتنع الناصر داود (وأدى ذلك إلى تصميم عزم الكامل على الخروج إلى الشام وأخذ دمشق وغيرها منه) . ولكي يهيء الجو لقدم الصليبيين إلى فلسطين ، خرج الكامل بقواته من مصر في رمضان 625 هـ (آب 1228م) . فاستولى على نابلس وبيت المقدس والخليل من الناصر داود، ثم أقام في تل العجول قرب غزة منتظراً وصول الامبراطور فردريك الثاني الذي كان في طريقه إلى فلسطين .

وصل الامبراطور إلى فلسطين. وحطت قواته في عكا في شهر شوال 625 هـ (أيلول 1228م) ، وبدأت الاتصالات بين الطرفين، ويجدر بنا التساؤل عن موقف الكامل محمد، ووقوفه هذا الموقف المثير. فالمؤرخون يذكرون أن الظروف كانت إلى جانب الكامل محمد ومصالحته، فموت أخيه المعظم عيسى قد أنهى حاجته إلى حليف خارجي . فابن واصل يقول : (وإنما قصد الملك الكامل بالاتفاق مع الامبراطور واستدعائه لاشغال سر الملك المعظم ولئلا يتمكن الملك المعظم بالاتفاق مع جلال الدين خوارزم شاه صاحب أربل من قصده وقصد الملك الأشرف) . وذكر بعض المؤرخين المحدثين أن الحملة الصليبية السادسة كانت من الضعف بحيث لا تشكل خطراً على الكامل محمد خاصة وبلاد الشام عامة، ومع ذلك جبن الكامل محمد من الوقوف أمامها، مدعياً أنه أراد الإيفاء بوعده لما عرف عنه من تسامح ديني، ولكن هل بلغ التسامح الديني لدى الكامل حداً جعله يفرط بأقدس مقدسات المسلمين؟ وهل التسامح الديني يجعلنا نفرط بأوطاننا ونسلمها للصليبي المستعمر؟

كانت فكرة القيام بحملة صليبية إلى بلاد الشام واردة لدى الامبراطور فردريك الثاني بسبب ضغط البابوية عليه. ولا شك أن الكامل كان على علم بالاستعداد للحملة، فوجدها فرصة مواتية كي يرسل الامبراطور للاتفاق معه على

الاسراع والقدوم الى فلسطين، كي يحول دون نجاح المعظم عيسى وحلفائه من مهاجمته وانتزاع مصر منه. وهذا ما أكدته ابن واصل. ثم ان المصادر اللاتينية للحملة أكدت وجهة النظر التي ذهبنا إليها. فالامبراطور فردريك كان يستعد للقيام بهذه الحملة في سنة 625 هـ (1227م). أي قبل وصوله الى فلسطين بعام واحد، ولكنه تأخر بسبب اصابته بمرض شديد. كذلك أراد الامبراطور أن يمهد لحملة هذه، فأرسل بدوره الى المعظم عيسى صاحب دمشق للاتفاق معه مقابل التنازل عن بيت المقدس الذي كان ضمن أملاكه. فرد المعظم على رسوله قائلاً: (قل لصاحبك ما أنا مثل الغير. ما له عندي سوى السيف). ثم بادر فأعد قواته وأرسلها الى نابلس للوقوف في وجه الصليبيين وحماية بيت المقدس. فالخطة كانت مدبرة ومتفق عليها بين الكامل محمد وفردريك، بموجبها يسلم الكامل بيت المقدس ومعظم الفتوح الصلاحية للصليبيين.

وكان بإمكان الكامل النكوث بوعده خصوصاً وان الأمر يتعلق ببيت المقدس، المدينة الأثرية لدى المسلمين جميعاً، ولن يكلفه ذلك جهد. اذا أخذنا بعين الاعتبار أقوال بعض الباحثين بان الحملة الصليبية السادسة كانت غير ذي بال، وانها أضعف وأغرب حملة صليبية وصلت الى بلاد الشام. إلا ان الدلائل تنفي ذلك، فالمصادر الإسلامية ذكرت ان جموعاً فرنجية كثيرة وصلت الى فلسطين قبل قدوم الامبراطور، ومكثوا هناك بانتظار وصوله. وأكدت ذلك المصادر اللاتينية فالمؤرخ Roger of Wendover ذكر في تاريخه ان جموعاً صليبية وصلت الى فلسطين قبل قدوم الامبراطور فردريك في سنة 625 هـ (1227م)، ولما أيقنوا انه غير قادم عاد 40,000 منهم الى أوروبا، وبقي آخرون بانتظاره اما عن الحملة نفسها، فالمصادر الإسلامية ذكرت ان الامبراطور قدم (الى عكا في جموع كثيرة من الألمانية وغيرها من الفرنج). أما المصادر اللاتينية فذكر المؤرخ: Phillip of Novara. ان الاسطول الذي حط في ميناء عكا رفقة الامبراطور كان مؤلفاً من سبعين قطعة بحرية.

وهكذا فاننا نرى ان الحملة الصليبية السادسة كانت على درجة من القوة والاستعداد، ويؤكد ذلك، ما فعله الامبراطور فردريك الثاني. فبعد قدومه الى فلسطين استولى على بعض المناطق في الساحل، كصيدا ويافا وقيسارية، وراح يزيد

في تحصيناتها. ثم ان الجيش الذي تحرك نحو قيسارية كان مؤلفاً من 800 فارس و 10,000 من المشاة. ومع ذلك فان قوات الكامل آنذاك كانت من القوة والمنعة ما تستطيع به التصدي للصليبيين والايقاع بهم. إلا ان الكامل خرج بقواته الى فلسطين لا للوقوف في وجه الصليبيين بل لانتزاع بيت المقدس من أخيه الناصر داود، لتسهيل مهمة تسليمها للصليبيين، كما نصت على ذلك المعاهدة المعقودة بين الطرفين ثم أقام في غزة بانتظار وصول الامبراطور الى فلسطين وهذا الموقف يذكرنا بموقف الأفضل شاهنشاه من جموع الحملة الصليبية الأولى للأراضي المقدسة، فقد خرج من مصر بقواته وانتزع بيت المقدس من الأميرين سكران وايلغازي بعد سقوط انطاكية بشهر واحد . فكلاهما تعاهد مع الصليبيين وفرط ببيت المقدس . فالأفضل خرج من مصر وانتزع القدس من الأرائقة ، بينما كان الصليبيون متوجهين اليه، والكامل خرج من مصر وانتزع القدس من الناصر داود صاحب دمشق، بينما كان فرديك الثاني في طريقه للأراضي المقدسة. ومصر في الحملتين الأولى والسادسة كانت من القوة والمنعة ما تستطيع به دفع المعتدين والتصدي لهم والانتصار عليهم .

ولما شعر الكامل محمد ان حصار دمشق قد طال بقيادة أخيه الأشرف موسى - وكانا قد اتفقا على انتزاع أملاك ابن أخيهما الناصر داود واقتسامها فيما بينهما - وان مشاعر الكراهية ضده قد ازدادت، حتى من داخل قواته. فقد عارضه أمراء جيشه ومنهم الأمير سيف الدين بن زكري الذي أشار عليه ضرورة الاتحاد مع أخيه الأشرف وابن أخيه الناصر داود ، فيجتمع ثلاثتهم ويقاثلوا العدو (فاما لنا واما علينا، ولا يقال عن السلطان انه أعطى الفرنج القدس) . وخشي الكامل أن يؤدي ذلك الى ثورة عارمة ضده تطيح بملكه، فأسرع الى انهاء المفاوضات، وعقد معاهدة مع الصليبيين في 28 ربيع الأول 626 هـ (25 شباط 1229م) ، سلم بموجبها بيت المقدس لهم . بالاضافة الى الناصرة وبيت لحم واللد والقرى الممتدة على طول الطريق بين القدس وعكا. فالكامل محمد اتفق مع الصليبيين على القدوم الى الأراضي المقدسة ، وكانت له أطماعه في الاستيلاء على بلاد الشام واضعاف خصومه فيها، فاستعان بالصليبيين من أجل ذلك . ويؤكد ابن واصل ذلك حيث يقول : ورأى الملك الكامل انه ان شاقق الامبراطور ولم يف له بالكلية أن يفتح له

باب محاربة مع الفرنج ويتسع الخرق ويفوت عليه كلما خرج بسببه) . وأما المؤرخ اللاتيني : Roger of Wendover فيذكر ان الحروب الداخلية انهكت الملك الكامل فأثر عقد المعاهدة مع الفرنج لمدة عشر سنوات بدون اراقة دماء .

ولم يغفر المؤرخون المعاصرون له هذه الزلة، فنعتوه بالخيانة والتقصير واعتبروا ذلك العمل وصمة في الدين، وحزن المسلمون لخروج القدس من أيديهم، وأنكروا على الملك الكامل هذا الفعل . وقامت المآتم في جميع بلاد المسلمين واستعظموا ذلك واكبروه واستشنعوه منه . وجلس سبط ابن الجوزي في الجامع الأموي يذكر للمسلمين ما جرى على البيت المقدس، وذكر ما في تسليمه من الصغار للمسلمين والعار، وعلق هو نفسه على هذه الحادثة في تاريخه فقال : (يا خجلة ملوك المسلمين لمثل هذه الحادثة) . ووصف ابن واصل الناس في الجامع الأموي قائلاً : (وكان يوماً مشهوداً وعلا يومئذ ضجيج الناس وبكاؤهم وعويلهم) .

أما تعليق الكامل على هذه الضجة التي اجتاحت العالم الإسلامي فقوله : (انا لم نسمح لهم إلا بكنايس وأدر خراب ، والحرم وما فيه من الصخرة المقدسة وسائر المزارات بأيدي المسلمين) . وذكر ابن واصل ان الكامل إذا قضى غرضه واستتبت الأمور له ، سينتاز إلى تطهير بيت المقدس من الفرنج واخراجهم منه . ولكن تقديرات الكامل كانت خاطئة ، فقد توفي ولم يتمكن من استرداده ، أو حتى مجرد التفكير في تحريره من الصليبيين، وكانت وصمة عار في تاريخه .

استيلاء الكامل محمد على دمشق :

أرسل الكامل أخاه الأشرف لحصار دمشق، وبقي هو في فلسطين (لتنميم أمر الصلح مع الفرنج وليخلو سره من جهتهم) . وبعد توقيع المعاهدة توجه الى دمشق، وشدت قواته الحصار على الناصر داود الذي اضطر الى الاتفاق مع عميه وقرراً له : (الكرك والشوبك وأعمالهما، والصلت والبلقاء والأغوار جميعها، ونابلس وأعمال القدس وبيت جبريل) . ثم دخلت قواتهما دمشق بين مشاعر السخط من أهلها، ويصور ابن واصل مشاعر الدماشقة قائلاً : (وما رأيت يومئذ واحداً من الدمشقيين إلا ورأيته في صورة من فجع بموت ولد أو أب) . ثم غادر الناصر داود دمشق، وتسلم البلاد التي عينت له مكوناً : إمارة الكرك الأيوبية،

وذلك في شعبان 626 هـ (تموز 1229م) .

ولقد لعبت هذه الامارة دوراً له أهميته في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) ، وتحملت عبئاً كبيراً في مقارعة الوجود الصليبي في فلسطين ، واتسعت رقعتها فشملت كل منطقة شرقي الأردن ، ومعظم الأراضي الفلسطينية . ثم كان لها دورها في مرحلة الصراع الذي نشب من جديد بين الملوك الأيوبيين ، فأصبحت ان ذاك تمثل مركزاً لتوازن القوى بين القاهرة ودمشق / ويعبر اليونيني عن ذلك على لسان أحد الأمراء موجهاً كلامه للكامل : (أنت وأخوك - أي الأشرف موسى - مثل الميزان لا يرجح عليك ولا ترجح عليه، وقد بقي بينكما الملك الناصر داود، فإلى أي جهة مال ترجحت) .

الناصر داود يحرر بيت المقدس :

نصت معاهدة الصلح التي عقدها الكامل محمد مع فردريك الثاني على تسليمه القدس شريطة أن لا تجدد أسواره . أما القرى الواقعة في منطقة القدس فتبقى بأيدي المسلمين، ويعين وال عليها يكون مقامه في قرية البيرة شمالي القدس. وبقي بيت المقدس بيد الفرنج طيلة حياة الكامل محمد، ولم يفكر في استرداده منهم كما وعد، علماً بأنه كان يستطيع ذلك بما لديه من قوات . أضف الى ذلك أنه جمع حوله معظم الملوك الأيوبيين في الشام ، وحاول التوسع شرقاً على حساب السلطان علاء الدين كيقباز بن كيوخرو صاحب بلاد الروم ، وانتزاع ما بيده من بلاد. ولكنه لم يحاول بهذه القوات تحرير بيت المقدس من الفرنج .

وفي رجب 635 هـ (1237م) توفي الكامل محمد وبيت المقدس بيد الفرنج. وبعد وفاته عاد التمزق والانشقاق الى صفوف البيت الأيوبي، فاهتبل الفرنج هذه الفرصة وأخذوا يعززون وجودهم في المدينة المقدسة وفلسطين، فأعادوا بناء بعض أسوار القدس، ثم عمروا في غربيه (قلعة جعلوا برج داود عليه السلام من أبراجها) وشحنوا هذه القلعة بالأجناد والعتاد، وصاروا يضيقون على المسلمين. ويحاولون السيطرة على أجزاء أخرى من فلسطين، فقاموا بزعامة ثيوبالد الكمباني Theopald of Champagne بتحصين عسقلان وغيرها أثر وصول جموع صليبية الى فلسطين. واستولوا أيضاً على قافلة تجارية إسلامية قرب نهر الأردن كانت في

طريقها الى دمشق . عندئذ رأى الملك الناصر داود صاحب الكرك وجوب استنقاذ القدس من الصليبيين . فالمنهاجي السيوطي ذكر ان الناصر داود كان يعمل منذ قدومه الى الكرك (على استنقاذ بيت المقدس من أيدي الفرنج وتطهيره من أرجاسهم وأدناسهم) . وهكذا قر عزمه على تحرير القدس خصوصاً وان عمه الكامل الذي كان يؤيد بقاء القدس بيد الصليبيين قد توفي .

فحشد الناصر داود قواته، وسار من الكرك باتجاه القدس، وكان الصليبيون لا يتوقعون هذا الهجوم، سيما وان الخلاف والانقسام بين الأيوبيين كان على أشده، أما هم فكانوا في شغل شاغل بسبب احتفالهم (بيوم عيدهم الأكبر). فحاصر الناصر داود بيت المقدس، وقسم قواته الى فرق وضع كل فرقة في مكان أعده لها، ثم نازل القلعة ونصب عليها المجانيق . وقبيل فجر ذلك العيد (عيد الميلاد) هجمت قواته على القدس فدهش الفرنج (وحاروا حين سمعوا التكبير من كل جانب من جوانب البلد ، ووضع المسلمون فيهم السيف) . واجتاحت قوات الناصر القدس وذلك في جمادى الأولى 637 هـ (كانون الأول 1239م) ، وطهره من الفرنج. أما القلعة فبقيت محاصرة مدة سبعة وعشرين يوماً وأخيراً (سلمت إليه بالأمان، ولما سلمت إليه هدمها، وهدم برج داود عليه السلام) ، وسواها بالأرض. ثم سمح الناصر داود للفرنج بمغادرة القدس، وهذا التصرف يذكرنا بما فعله صلاح الدين الأيوبي مع الفرنج عند تحريره القدس في سنة 583 هـ (1187م) .

ثم كتب الناصر من انشائه الى الخليفة العباسي المستنصر بالله يبشره بهذا الفتح المبين، كما أمر بكتابة البشائر الى سائر الممالك الإسلامية يخبرهم بفتح بيت المقدس وتحريره من الفرنج واتفق عند هذا الفتح وصول محي الدين ابن الجوزي رسول الخليفة العباسي للتوفيق بين الملوك الأيوبيين وصحبته الشاعر جمال الدين ابن مطروح ، فقال ابن مطروح بهذه المناسبة قصيدة يمدح فيها الناصر داود ويمثله بالناصر صلاح الدين الأيوبي. نقتطف منها الأبيات التالية :

المسجد الأقصى له عادة	سارت فصارت مثلاً سائرا
إذا غدا بالكفر مستوطنا	أن يبعث الله له ناصرا
فناصر طهره أولاً	وناصر طهره آخرأ

أما المنهاجي السيوطي فقال : (ثم رجع الناصر بعد تمام هذا الفتح المبين الى الكرك، وقد سطرت هذه المثوبة في صفحات حسناته، وتواردت الألسن بالثناء له وشكر مساعيه المثوبة المحمودة) .

وأرسل الناصر داود بعد تحرير القدس رسالة الى الخليفة العباسي في بغداد المستنصر بالله يبيّنه بفتح القدس يقول فيها : «وينهى أنه طالع المقام الشريف بأمر الهدنة وانقضاء مدتها، وانفساخ عقدها، وأقام به (القدس) كند من كنودهم، ومقدم من جنودهم ، وهو فارس مشهور من فرسانهم ، وطاغية يذكر من شجعانهم . كان قد عمر قلعة القدس في مدة الهدنة وحصنها ، وملاها بالعدد والآلات وشحنها، ووصلها ببرج عظيم المقدار والحجم، مساو في المنعة الجبل وفي الرفعة النجم ... وهو من أسفله الى ثلثه قد صب فيه الحجر والكس صباً، وردم بقوة بحيث لو حضره يأجوج ومأجوج ما استطاعوا أن يظهره ولا استطاعوا له نقباً ... واستغرى اللعين معه طائفة من شجعان الأبطال وأبطال الشجعان ، ومن المشهورين بالشدة والبأس إذا التقى الجمعان ... فقاتل العبد جموعهم ، وقابل جأشهم بجيش من المصابرة لا يفل جنوده، وجرده لهم جماعة ترسل اليهم البوائق من نبالها، وتشهر عليهم الصواعق من نصالها. ونصب عليها المجانيق التي تزام الحصون بمناكبها ، وتحرق شياطينها برجوم حجارتها بدلاً من نجوم كواكبها. وأوجد النقابون في الأسوار نقوباً سفرت نقابها ورمى الزراقون في الستائر نيراناً هتكت حجابها ... ومكن أيدي المؤمنين من نواصيهم ، وطلعت على الأسوار المنيفة من الاعلام الشريفة ، الراية التي أعادت بسناها آية الليل لكن من آياته النهار أبصاراً ، وأعظم من النيرين الشمس والقمر ضياءً وابداراً .

وأخذ العبد القلعة وتسلمها ، وافترع ذروتها العليا وتسمنها ، وتبرجت له أبراجها المصونة وتجلت، ومدت له أرضها فالقت ما فيها وتختت ... فسألوا الأمان على نفوسهم والخروج بمجرد نفوسهم ، فأجابهم العبد الى هذه المسألة الهينة الممكنة، وخرجوا وقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة ... وصارت الى العبد القلعة إرثاً عن أبيه، واجتمع شمل المساجد الثلاثة بما منح الله من التأييد، ورد الله الحق الى نصابه، وإليه يرجع الأمر كله ... » .

لقد صممت المراجع الحديثة عن تحرير القدس الشريف من قبل الناصر داود

صاحب الكرك، وإنما في هذه الدراسة الموثقة نثبت عمق العلاقات النضالية بين شرق النهر وغربه ، لقد كانت فلسطين دوماً ومنذ أقدم العصور مطمعا للغزاة والفاطحين ، وكانت منطقة شرق الأردن وأهلها السابقون دوماً لنجدة ونصرة فلسطين وأهلها، منذ آلاف السنين، فوقفوا بقوة وحزم أمام العبرانيين وحاربوهم وانتصروا عليهم، ووقف ملوك الأنباط أمام المد اليهودي الذي استهدف شرق النهر، ثم كان للغساسنة دورهم في محاربة اليهود في السامرة وغيرها. ولم تنقطع تلك الصلات بين شرق النهر وغربه في العصور اللاحقة كما رأينا، وكان الأهالي في شرق الأردن يسارعون الى نجدة إخوانهم في غرب نهر كلما حاق بهم ضيم أو ظلم أو احتلال أجنبي ... إنه قدر أهالي شرقي الأردن، لأن بلادهم هي خط الدفاع الأول عن فلسطين وبيت المقدس ، ومن هنا فقد عانوا ، وقدموا وضحوا وبذلوا الكثير في سبيل المحافظة على عروبة فلسطين والقدس الشريف منذ أقدم العصور حتى الوقت الحاضر

م 1997/1/23

المؤسسات الاجتماعية في بيت المقدس في العصر الإسلامي

عاشت المدينة المقدسة عصرها الذهبي في العصر المملوكي، فهي تحتوي على الأماكن المقدسة لدى الديانات الثلاثة، وهي مركز إشعاع روحي وحضاري وعلمي وفكري . لذا أمها الناس من جميع أنحاء العالم للزيارة وأداء مناسك الحج أو امتنوها التعليم في مدارسها العديدة، وقصدها طلاب العلم من كل فج. واختارها العديد من رجال الدين النصارى من قسس ورهبان، فأقاموا في كنائسها وأديرتها فوجدوا التسامح من السلاطين والأمراء المماليك. حتى ان السلاطين رفعوا المظالم عنهم، وأثبتوا ذلك في نقوش رخامية الصقوها في جدران الحرم القدسي وكنيسة القيامة. فالسلطان جقمق فعل ذلك سنة 853 هـ (1449م) وأبطل عدة مظالم على نصارى بيت المقدس، ولكي يضمن تحقيق ذلك جعل المتكلم في تطبيق هذا المرسوم من واجب ناظر الحرمين الشريفين في القدس والخليل .

ومن الجدير بالملاحظة ان السلاطين المماليك اختاروا القدس منفى مريحاً لبعض الأمراء الذين لا يشكلون خطراً مباشراً على الدولة، ولا يريدون القسوة عليهم والتشديد. فالذي ينقم عليه السلطان كان يرسله الى سجن الاسكندرية أو الكرك أو صغد أو غيرها من الأماكن في مصر الشام. أما مرتكب الذنوب البسيطة فكان السلطان يرسله الى بيت المقدس (بطالا) ، ففي سنة 788 هـ (1386م) عزل السلطان الظاهر برقوق الأمير بيدمر الخوارزمي عن نيابة دمشق وعين مكانه الأمير استقتمر الماردين الذي كان يقيم في بيت المقدس بطالا. وهذا يعني ان الأمير المنفي الى القدس يمكنه العودة الى السلطة مرة أخرى وتقلد المناصب الهامة في الدولة وإعادة الاعتبار اليه، فالقدس على هذا النحو (منفي مريح) . وقد أشار أستاذي الدكتور سعيد عاشور ان سبب اختيار بيت المقدس منفى للأمراء يعود لأسباب منها ان النفي للقدس لا يعني السجن بل هو تحديد للإقامة ، فهو يعيش داخل المدينة حراً طليقاً يمارس أموره بحرية، ولكنه لا يمكنه مغادرتها إلا بإذن

سلطاني. ولأن الحياة في القدس أخف وطأة من غيرها من الأماكن التي اعتاد السلاطين نفي الأمراء إليها، ولاعتدال جوها وقربها من القاهرة. ولأنها مدينة دينية، فيقيم الأمير هناك صحبة العلماء والفقهاء، فلا يشعر بقسوة النفي لوجوده في ذلك الرحاب الديني الطاهر. ثم إن الأمير المنفي لن يجد في القدس قوة تقف إلى جانبه فيما لو حاول الثورة أو التمرد، لأن طبيعة المدينة لا تساعد على ذلك. فهي بمركزها الديني والعلمي تختلف عن كل من الكرك ودمشق وحلب وصفد وغزة التي يمكن أن ترفد أية ثورة أو تمرد على السلطة في القاهرة، فلكل تلك الاعتبارات والامتيازات التي تمتع بها البيت المقدس، تسابق السلاطين والأمراء والأثرياء إلى بناء المؤسسات الاجتماعية ووقفوا عليها الأوقاف العديدة في مصر وبلاد الشام كي تواصل مهمتها في تقديم الخدمات اللازمة لقاصديها (كالبيمارستانات). كما أقيمت المؤسسات الأخرى التي تقدم خدماتها للمواطنين بأجور معينة، فتدخل السرور والراحة في قلوبهم، وتبعث فيهم النشاط (كالحمامات) التي هي في الحقيقة منتديات اجتماعية يلتقي فيها الرجال والنساء. يتداولون ويتجادبون أطراف الحديث، وهي أشبه بالصالونات الاجتماعية للتعارف ونقل أخبار المجتمع.

البيمارستانات :

انشئت البيمارستانات منذ العصر الأموي، وهي من مفاخر الحضارة العربية الإسلامية، وزاد الاهتمام بها في العصر العباسي، ولكن الأيوبيين والمماليك استكثروا من هذه البيمارستانات وقاية لأهل البلاد من الأوبئة والطواعين التي ما فتئت تضرب المنطقة الفينة بعد الأخرى. ولم تكن مهمة هذه البيمارستانات قاصرة على العلاج، بل أدت دوراً تعليمياً، فهي أشبه بكليات الطب، فالطلبة يقسمون إلى فرق، كل فرقة تتخصص بفن معين، فمنهم طبائعية (باطنية) وطائفة مجبرين (عظام)، وجراحية وفريق كحالين (العيون). ووجد في البيمارستان قسم للصيدلة، يتعلم الطلاب فيه كيفية تحضير العقاقير وطبخها وعمل المعاجين والمرام وغيرها.

ووجد في البيمارستان أئمة (سجلات) يدون فيها أسماء المرضى، والنفقات التي يحتاجونها من أدوية وأعدية. وكان الأطباء يبكرون إلى البيمارستان

ويتفقون المرضى، ويأمرون اعداد ما يحتاجونه من علاج. وهذه المعلومات كانت تسجل في لوح خاص يثبت على سرير كل مريض . ووجد لكل بيمارستان وقف خاص ينفق ريعه على شؤون هذا البيمارستان التي بلغت في احداها خمسة عشر ديناراً يومياً .

وقسم البيمارستان الى اقسام فهناك قسم خاص للنساء، وآخر للجراحة، وثالث للحميات، ورابع للرمد، وخصص قسم في بعضها للأمراض العقلية، ولكل بيمارستان ناظر يشرف على ادارته، ويراقب المرضى والأطباء. ووجد في بيت المقدس بيمارستان منذ العصر الفاطمي، فقد زار ناصر خسرو القدس سنة 438هـ (1047م) ، ووصفه بأنه (مستشفى عظيم) ، يصرف لمرضاه العلاج والدواء ، وله وقف يأخذ الأطباء مرتباتهم منه . وبقي هذا البيمارستان يقدم خدماته في فترة الاحتلال الفرنجي لبيت المقدس، ففي سنة 555 هـ (1160م) زار الرحالة الألماني John of Wurzburg بيت المقدس وذكر ان البيمارستان يقع في الجهة الجنوبية المقابلة لكنيسة القيامة، وانه يقوم بعلاج ألفي شخص، وله رؤوساء يشرفون عليه. وقد تمكن هذا البيمارستان من استقبال 750 جريحاً بعد معركة تل الصافية التي دارت بين الفرنج وصلاح الدين الأيوبي سنة 573 هـ (1177م) .

وفي سنة 559 هـ (1163م) زار الرحالة الأندلسي بنجامين التطلي بيت المقدس وأشار الى وجود بيمارستانين، الأول يستوعب 400 سرير، أما الثاني فهو بيمارستان الملك سليمان ويستطيع علاج نفس العدد، وهؤلاء المرضى كانوا يأتون الى القدس من جميع أنحاء مملكة اللاتين في الشام .

ووصف أسقف وزبيرج الذي زار القدس سنة 583 هـ (1187م) هذا البيمارستان فقال : تقوم الكنيسة والبيمارستان في الجهة الجنوبية من كنيسة القيامة، ولا يستطيع إنسان وصف جمال هذين المكانين. والبيمارستان مزود بالغرف والأسرة المهياة لخدمة المرضى، ولم تتمكن من معرفة عدد المرضى الذين يرقدون فيه، ولكن لاحظنا أن عدد الأسرة كان يفوق الألف سرير .

وفي نفس هذه السنة ذكرت المصادر العربية أن صلاح الدين حرر بيت المقدس بعد معركة حطين سنة 583 هـ (1187م) ، فرتب أموره، وجدد بناء أسواره، وعمق خندقه. وبعد صلح الرملة سنة 588 هـ (1192م) ، فوض صلاح

الدين ولاية القدس الى الأمير عز الدين جرديك، وزاد في أوقاف المؤسسات العلمية والاجتماعية التي أسسها في القدس من ذلك رباط الصوفية فزاد في أوقافه. وكان قد جعل كنيسة صند حنا عند باب الأسباط مدرسة للشافعية فزاد في أوقافها أيضاً. أما الكنيسة المجاورة لدار الاسبتار، جنوب كنيسة القيامة والناحية المجاورة لها، فقد إتخذها بيمارستاناً للمرضى فأشغلت مساحة 170 × 150 ياردة ، وهيا فيه العقاقير والأدوية، ووقف عليه الأوقاف العديدة، وجعل النظر في هذه الأوقاف للقاضي بهاء الدين يوسف بن رافع المعروف بأبن شداد، وسماه البيمارستان الصلاحي. أما دار الاسبتار فإن الأمير شهاب الدين غازي حولها في سنة 613 هـ (1216م) الى زاوية سماها (زاوية الدرگاه) ، وكان نواب القدس ينزلون في هذه الزاوية قبل أن يتخذوا المدرسة الجاولية مركزاً لهم. وبقي هذا البيمارستان يؤدي دوره في العصر الأيوبي والملوكي، فالوثيقة رقم 20 تاريخ 768 هـ من وثائق المتحف الإسلامي في القدس نصت على أن جعفر بن محمد أبي بكر السعاد من القدس، وقف الدار الكائنة بخط باب العمود على مصالح البيمارستان الصلاحي (يسلك بذلك مسلك أوقاف البيمارستان المذكور وفقاً صحيحاً شرعياً مؤيداً، وحبساً دائماً محلاً، لا يباع ولا يوهب ولا يملك بوجه من وجوه الملكان) ، وهذا يؤكد استمرار البيمارستان الصلاحي يؤدي خدماته للمواطنين في العصر الملوكي علاجاً وتديساً .

ويؤكد وجهة النظر التي ذهبنا إليها الرحالة الأجانب الذين زاروا القدس وقدموا لنا وصفاً لبيمارستانها ، ففي سنة 722 هـ (1322م) زار الرحالة Sir John Maundville بيت المقدس، فذكر قائلاً : على بعد 200 خطوة الى الجنوب من كنيسة القيامة يوجد بيمارستان عظيم، وهو البيمارستان الذي وضع أسسه الفرسان الاسبتارية، وبداخل هذا البناء يوجد 124 عاموداً حجرياً. وإلى الشرق من البيمارستان تنهض كنيسة جميلة تسمى كنيسة Our Lady the Great وفي الغرب توجد كنيسة أخرى تدعى Our Lady the Latin .

أما الرحالة الألماني Ludolph Von Suchem الذي عاش في فلسطين مدة خمس سنوات 737 - 742 هـ (1336-1341م)، فذكر ان البيمارستان الصلاحي ظل يؤدي دوره. وأشار الى أنه يقع قرب كنيسة القيامة، وأنه بيمارستان عظيم

يتسع لالف مريض. وجرت العادة في العصر المملوكي أن يدفع كل حاج قادم الى المدينة المقدسة بنيان فينيسيّان Two Venetian Pennies بدل معالجتهم في المستشفى. ويدفع هذا المبلغ مرة واحدة، بغض النظر عن المدة التي يبقيها الحاج في المستشفى سواء أكانت يوماً واحداً أو سنة كاملة .

وظل هذا البيمارستان مستخدماً لفترة ما في العصر العثماني، ففي سنة 1869م زار الأمير فرديريك أمير بروسيا بيت المقدس، فمنحه السلطان العثماني عبد العزيز بن محمود الثاني النصف الشرقي من البيمارستان الصلاحي. ثم وضع الجزء الجنوبي من النصف الشرقي تحت تصرف الجماعة الدينية الانجليزية British Order of Saint John ثم قام الألمان فيما بعد ببناء شارع يمر خارج البيمارستان ويقطعه من الشمال الى الجنوب وأطلقوا عليه اسم شارع الأمير فرديريك Prince Fredrick William وفصلوا ممتلكاتهم عن ممتلكات اليونانيين. وأنشأوا بوابة عند مدخل شارع داود تحمل النسر الألماني شعارهم، ولم يكتفوا بذلك، بل قاموا سنة 1898م ببناء الكنيسة اللوثرية الحالية Lutheran Church ، وجعلوا بناءها على نمط بناء الكنائس القديمة، وذلك برعاية وتشجيع وضغط الامبراطور الألماني نفسه .

وهكذا فان البيمارستان الصلاحي اندثرت معظم معالمه وأقيمت مكانه الكنيسة اللوثرية وغيرها من المنشآت الأخرى منذ القرن التاسع عشر، ولم يبق منه سوى أجزاء بسيطة تتمثل في أربع قاعات كبيرة تقع بجانب دار الوكالة وجنوب الكنيسة اللوثرية. وهذه القاعات كبيرة الاتساع كانت تستخدم لاقامة المرضى، فالقاعة الأولى والثانية والرابعة تستخدم حالياً لبيع الخضار، أما الثالثة فهي بيزار لبيع التحف الخشبية والصدفية. وتحتوي هذه القاعات على عقود مدببة، وتقوم على دعائم قوية مربعة ضخمة، وبعد الانتهاء من القاعة الرابعة، تأتي الى دهليز واسع من نفس نمط بناء العقود الأخرى، هو الشارع الذي أقامه اللوثريون ليقسم البيمارستان الى قسمين ويقود الى الكنيسة اللوثرية .

ويمكن الوصول الى البيمارستان الصلاحي عن طريق باب السلسلة، وفي مواجهة البيمارستان يقوم حالياً ما يسمى سوق الحصريين .
وذكرت المصادر عن وجود البيمارستان المنصوري في مدينة الخليل أنشأه

السلطان المنصور قلاوون في سنة 680 هـ (1281م) ووقف عليه الأوقاف
العديدة والبیمارستان الفخري في مدينة الرملة بناه القاضي فخر الدين محمد بن
فضل الله ناظر الجيوش المصرية في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون قبل
سنة 732 هـ (1331م) .

الحمامات :

تعتبر الحمامات من أهم المؤسسات الاجتماعية في الإسلام، وكانت ظاهرة
تعدد الحمامات في العصور الإسلامية واضحة، فلحمام في العمارة الإسلامية
مكانة خاصة، فعادة الاستحمام من العادات الهامة في المجتمع الإسلامي لأنها
مظهر من مظاهر الطهارة والنظافة التي يحض عليها الإسلام. وروعي في تخطيط
تلك الحمامات أن تحتوي على ثلاثة بيوت أو قاعات. فالبيت الأول مبرد مرطب
يخلع فيه المرء ملابسه، والثاني مسخن مرخ، والبيت الثالث مسخن مجفف.
والمقصود من هذا التقسيم التدرج في درجة الحرارة حتى لا يتعرض المستحم
للمرض من انتقاله فجأة من الجو البارد إلى الحار وبالعكس .

ووجد في كل حمام قدر كبيرة من النحاس يسخن فيها الماء، وينقل منها
أنابيب فخارية إلى الأحواض، وتبلط أرضيته ببلاد خاص، وزينت جدران قاعاته
بالنقوش الجميلة . ويتزود الحمام بالمياه الباردة من برك خاصة أو بواسطة
(السقا) الذي يجلب الماء بالروايا والقرب . وكان في كل حمام قومة وموظفون
يقومون على خدمة المستحمين وتنظيف الحمام كل يوم، ويشرف المحتسب على هذه
الحمامات، فيراقب ما يجري فيها حماية للفضيلة والأخلاق ومحافظة على نظافتها
وطهارته . ويستعملون فيها البخور في اليوم مرتين كي تبقى رائحته نكية . كما
يراعى عدم دخول المرضى هذه الحمامات كالمجدوم والأبرص، وعلى كل مستحم
أن يغطي عورته بمئزر خاص .

وخصصت حمامات للرجال وأخرى للنساء، ولكن بعضها كانت تحدد
أوقاتاً معينة للرجال وأخرى خاصة بالنساء . وانتشرت هذه الحمامات في المدن
الشامية وقراها، فوجدت الحمامات في دمشق وحلب وحمص وحماء وطرابلس
وصفد والكرك وعمان وحسبان وعجلون. والرملة، والخليل ونابلس وغيرها من

المدن، وذكر ابن جبير في القرن السادس الهجري ان عدد حمامات دمشق مئة حمام. أما بيت المقدس فوجد به عدد من الحمامات نذكر منها : حمام السوق الكائن في سوق العطارين، وحمام علاء الدين البصير في خط مرزبان جوار المدرسة اللؤلؤية، وحمام العين، وحمام الشفا ويعودان للقرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) . وحمام البترك أو البترك في حارة النصرى، وهو وقف على الخانقاه الصلاحية، وقد أشارت الوثيقة رقم 46 تاريخ 747 هـ عن سند إيجار هذا الحمام الى داود بن نصر وشقيقه أحمد بمبلغ ثلاثة عشر درهم فضة نفرة يومياً ، عشرة دراهم أجره للحمام وثلاثة ترصد لتنظيفه. وقد دفع المستأجران القسط الأول وقدره ثلاثمائة درهم أجره شهر كامل، أما الباقي فيقسط ويدفع عند غروب شمس كل يوم . وذكرت المصادر عن وجود (حمام الملكة) في نابلس ، وقفه الأمير سنجر الدواداري الصالحي على مصالح الخانقاة الدويدارية التي أنشأها في القدس سنة 695 هـ (1295م) .

وزودت هذه الحمامات ببرك خاصة لتزويدها بالمياه، أو لجمع المياه القذرة فيها، فحمام علاء الدين كانت له بركة كهذه، وكذا حمام البترك، وقد نصت الوثيقة رقم 46 من وثائق المتحف الإسلامي بالقدس أن على المستأجرين نزح مياه هذه البركة .

1997/7/26 م





مدينة عمّان الأردنية في التاريخ الإسلامي الوسيط

«عمّان» - بفتح العين المهملة والميم المشددة وزيادة ألف ونون على الذي قبله على وزن فعلان، ويقال أيضاً عمان بتخفيف الميم - اليوم عاصمة المملكة الأردنية الهاشمية - تقع في الجزء الشمالي من البلاد، على نحو ثمانية وثمانين كيلومتراً من بيت المقدس الواقعة الى الجنوب الغربي منها عبر نهر الأردن، وتبعد مسافة عشرين كيلومتراً من نهر الزرقاء (بيوق) الواقع الى الشمال منها، ويقول أبو الفداء : «وهي واقعة غربي مدينة الزرقاء وشمالي بركة زيزاء» ، وهي في الجزء الشمالي الشرقي من منطقة البلقاء الخصبة على سيف بادية الأردن فالى الجنوب والشرق منها تقع أهم القصور والقلع الأموية ونعتها الجغرافيون العرب بانها «قصة أرض البلقاء» .

وتقوم مدينة عمان الحديثة في نفس الموضع تقريباً الذي كانت تشغله المدينة القديمة ما عدا القلعة، ذلك المكان الاستراتيجي الحصين الذي انتشرت الابنية من كل جهاته ما عدا سطحها حيث بني المتحف الحديث واعتبرت المساحة الباقية منها منطقة أثرية واستبعد البناء والعمران عنها. مع ملاحظة أن المدينة الحديثة أشغلت حيزاً أكبر بكثير مما كانت تشغله المدينة القديمة القائمة وسط الوادي عند أقدم القلعة الحصينة، وتغطي عمان الحديثة مساحة من الأرض تبلغ أربعين كيلومتراً مربعاً تنتشر على عدة جبال متجاورة .

ورد اسم عمّان في المصادر القديمة ومنها التوراة باسم ، «عمّون Ammon» و «عمّانا Ammana» و «ربة عمّانا Rabbat Ammana» و «ربة عمّون Rabbat Ammon» ، وعمّان Amman ، وهي عاصمة العمونيين Ammonites منذ 1200 ق.م ، وامتدت مملكتها من نهر الزرقاء (بيوق) شمالاً الى نهر الموجي (أرنون) جنوباً، وامتدت غرباً حتى نهر الأردن .

قامت مدينة عمان في بقعة خصبة، فالسهول الزراعية تحيط بها من الجنوب والشمال والغرب، واشتهرت في العصر الإسلامي الوسيط بأنها ذات قرى عديدة ومزارع شاسعة. حتى أن أحد المؤرخين العرب، ذكر أن عدد القرى الواقعة في البلقاء وحسبان حول عمان ثلاثمائة قرية، كما وصفت بأنها «معدن الحبوب» ، ويتوسط مدينة عمان نهر صغير ينبع من أحد جبال عمان ويسير في منتصف الوادي الخصيب. وكان هذا الرافد يسقي أهالي المدينة بالإضافة الى الزراعات التي كانت قائمة حوله، كما أقيمت عليه الارحية العديدة لطحن الدقيق، ويصب هذا الرافد في نهر الزرقاء، وما زالت هذه المياه تسقي مدينة عمان الحديثة، حيث تضخ المياه من أول المجرى المسمى «رأس العين» .

ان لموقع مدينة عمان أهمية كبرى في بقائها عبر عصور التاريخ المتلاحقة، فقد كانت عمان «عمون» القديمة، تقوم على جبل القلعة في مكان حصين تحيط بها الأسوار المنيعة بالإضافة الى الأبراج المنتشرة على التلال المجاورة لمراقبة العدو والتصدي له، كما أن خصب تربتها ووفرة مياهها ووقوعها على طريق القوافل التجارية القادمة من الجزيرة العربية والبحر الأحمر، جعل منها سوقاً تجارية رائجة، حتى قيل عن اقليمها في العصور الوسطى «والتجارات به مفيدة» . ولكونها في طريق الحاج الشامي فهي احدى المحطات الهامة لهم، منها يتزودون بأصناف البضائع والمياه، كل هذه العوامل مجتمعة مكنت مدينة عمان من البقاء والازدهار منذ أقدم العصور واستمرار عمرانها .

من كل ما تقدم يمكن القول بأن عمان جاء تصحيفاً من اسمها القديم «ربة عمون» وهو اسم شامي يرده بعضهم الى عمان أحد أبناء لوط . وقد احتفظت به على مدى عصور التاريخ رغم تغير اسمها في عهد بطليموس الثاني (285 - 247 ق.م) الى «فيلادلفيا» ، وكانت احدى مدن الديكابوليس العشرة، وظلت تعرف بهذا الاسم الجديد في العصر الهليني والروماني والبيزنطي، إلا أنها سرعان ما عادت الى اسمها القديم بعد انحسار الحكم البيزنطي عنها ودخولها في فلك الحكم الإسلامي القادم من الجزيرة العربية. ونستدل من ورود اسم عمان في أشعار العرب في عصر الدولة الأموية على أن الاسم الجديد أصبح سارياً قبل ذلك

بأمد طويل بحيث ان اسم عمان تردده بعض الأحاديث النبوية الشريفة. وورود اسم عمان في هذه الأحاديث دليل واضح على أن عمان كانت معروفة عند العرب في الجزيرة العربية قبل الإسلام .

ولم يغفل الجغرافيون العرب عمان، فابن خردادبة (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله) المتوفى سنة 300 هـ - 912 م . يذكر في معرض حديثه عن كورة دمشق وأقاليمها أن بها : كورة حوران، وكورة الجولان، وظاهر البلقاء، وجبل الغور، وكورة مأب، وكورة جبال الشراه، وكورة عمان والجابية .

أما الاضطخري (أبو اسحق ابراهيم بن محمد) المتوفى في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) فيقول : «وعند البلقاء عمان الذي جاء في الخبر في ذكر الحوض أنه ما بين عمان وبصرى» .

ويتحدث المقدسي (شمس الدين أبو عبد الله أحمد المتوفى سنة 375 هـ 958 م) ، عن عمان فيذكر أنها على سيف البادية ذات قرى عديدة ومزارع شاسعة، وأنها «معدن الحبوب» ويذكر أن بها جامعاً ظريفاً جميل يقع في طرف السوق صحنه مزين بالفسيفساء ويشبهه بجامع مكة المكرمة ويذكر بعض آثارها فيقول أن بها قصر جالوت على جبل يطل عليها، وبها أيضاً قبر أورياً أقيم عليه مسجد، كما يذكر أن بها ملعب سليمان (المدراج الروماني) وأما عن الحياة الاقتصادية فيروى أنها تشتهر بالتجارة والتجارة بها مفيدة رخيصة الأسعار كثيرة الفواكه، وأما مكابيلها فيذكر أن أهل عمان يستعملون المدى «ومدى عمان ست كيالج وقفيزهم نصف كيلجة وبه يبيعون الزبيب والقطين» .

ثم تنتقل الى ما قاله ابن حوقل (أبو القاسم محمد بن حوقل ت. 380 هـ 990 م) ، فعند كلامه عن حوران والبثنية يقول عنهما : رستاقان عظيمان من جند دمشق مزارعها مباحس ويتصل أعمالها بحدود نهرين الذي عند البلقاء وعمان الذي جاء في الخبر أنه من ركي الحوض وانه ما بين بصرى وعمان .

أما البكري (أبو عبيد الله بن عبد العزيز ت 487 هـ 1094 م) ، فيذكر أن عمان بلدة من عمل دمشق، وإنها سميت بعمان بن لوط عليه السلام .

ولا بد من أن نذكر ما قاله ياقوت الحموي ت 626هـ/1229م ، فهو يتكلم عن مدينة عمان بأسهاب فيذكر اشتقاقها ونسبتها، ويقول أن عمان بلد في طريق الشام، وبالقرب منها الكهف والرقيم، وانها تشتهر بالزراعة والتجارة، ويشير الى جامعها الجميل المزين بالفسيفساء .

ويهمنا في هذا المقام أن نذكر ما رواه ابن شداد (عز الدين أبو عبد الله محمد، ت 684 هـ/1285م) ، الذي يعتبر من أعظم من كتب عن طبوغرافية الشام التاريخية، فهو يرى أن عمان مدينة البلقاء سميت بعمان بن لوط كما يذكر أن كور جند الشام تسعة، منها كورة الظاهر ومدينتها عمان، وفي حديثه عن أرض البلقاء يذكر أن فيها مدينتان هما مآب وعمان .

أما جغرافيو القرن الثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر الهجري فنذكر منهم : الدمشقي (شمس الدين محمد بن أبي طالب ت 727 هـ/1327م ، فيذكر المناطق التي تتبع مملكة الكرك مثل، الصلت، وادي موسى، وقلعة السلع، وأرض مدين، وزغر، ومدينة عمان وعملها وأرض البلقاء .

ويذكر أبو الفداء (الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل ت 732 هـ/1332م) أن عمان هي البلقاء، ويصفها بأنها رسم كبير ويمر تحتها نهر الزرقاء، ويصف أرضها ومزارعها بأن حوالي عمان مزارع واسعة وأرضها زكية طيبة خصبة، ويختتم كلامه بأنها مدينة البلقاء .

ولا بد من الإشارة الى ما ذكره العمري (شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري ت 749 هـ/1348م) ، فقد ذكر أن عمان من البلقاء وأن يزيد بن أبي سفيان هو الذي فتحها فهو يقول : «ومن البلقاء مآب وعمان، فأما عمان فان يزيد ابن أبي سفيان فتحها، وأما مآب فان أبو عبيدة رضي الله عنه فتحها» .

أما ابن الوردي (سراج الدين أبوحفص عمر بن مظفر ت 749 هـ/1348م)، فهو يقول في معرض حديثه عن أرض دمشق وكورها فيذكر منها: كورة الغوطة، وكورة جولان وكورة الشراه، وكورة عمان .

ثم ننتقل لنرى ما قاله القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي ت 822 هـ /

1418م) ، فعند حديثه عن عمل البلقاء يقول انها سميت بالبلقاء بن سورية من بني عمان بن لوط وهو الذي بناها، وأرى أنه يقصد بذلك مدينة عمان، فالبلقاء لم تكن مدينة كي بينها ولأن عمان كانت تدعى لدى بعض الجغرافيين بالبلقاء .

ويقول ابن سباهي (محمد بن سباهي ت. 997 هـ/1589م) أن عمان مدينة من الاقليم الثالث من البلقاء، ويشير الى أنها رسم كبير يمر تحتها نهر الزرقاء الواقع على طريق حجاج الشام، ويصف تربتها بأنها زكية طيبة، وعلى مقربة منها يوجد الكهف والرقيم .

وأرى أن أختتم أقوال الجغرافيين العرب بقول القرماني (أبو العباس أحمد بن يوسف الدمشقي ت 1019هـ/1610م) ، ففي حديثه عن عمان يذكر أنها رسم كبير لها ذكر في تاريخ الإسرائيليين وأن نهر الزرقاء يمر من جانبها وأنها مدينة قديمة تقع الى الغرب من الزرقاء .

وقد كان لعرب اليمن والجزيرة العربية منذ أقدم العصور صلات تجارية وثيقة ببلاد الشام ، وتمكن القرشيون من احتكار التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، فكانوا ينقلون متاجر الهند والصين والبحرين واليمن والحبشة والصومال في قوافل تسير في الطريق التجاري البري الذي يشق بلاد العرب من الجنوب الى الشمال مروراً بمكة وتيماء والعلا ومنتهى ببصرى، وكان لا بد لهذه القوافل من عبور منطقة البلقاء سالكة طريق تراجان المعبد عبر الهضبة الأردنية الخصبة (الطريق الملكي أو السلطاني) ، ومن المعلوم أن هذا الطريق كان يتصل بمدينة فيلادلفيا «عمان» أولاً، لذا فان عمان في فترة الحكم الروماني والبيزنطي كانت من المحطات الهامة على طريق القوافل التجارية العربية، وانها كانت معروفة لديهم باسمها السامي «عمان» وليس باسمها الاغريقي «فيلادلفيا» بدليل أن الرسول (ﷺ) قد ذكرها في أحاديثه كما أسلفنا .

ثم فتحت مدينة عمان في جملة الفتوح الإسلامية لبلاد الشام في عهد الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، على يد القائد يزيد بن أبي سفيان، ويذكر البلاذري أن يزيد سار الى عمان ففتحها فتحاً يسيراً بصلح على مثل صلح بصري وغلب على أرض البلقاء . أما الأزدي فيورد رواية أخرى فيذكر أن أبا عبيدة قدم إليها

وهو في طريقه الى مؤاب فسار «على زيزاء ثم سار على مآب بعمان فخرج اليهم الروم فلم يلبثهم المسلمون أن هزموهم حتى أدخلوهم مدينتهم ، فحاصروهم فيها ، وصالح أهل مآب فيها فكانت أول مدائن الشام صالح أهلها . وقد روى المؤرخون أن أرض البلقاء في هذه الاثناء كانت عامرة خيرة كثيرة الغلال ثراؤها وافر وعمارتها متصلة غنية . ومما تجدر ملاحظته هنا أن عمان بعد الفتح العربي أعيدت اليها التسمية السامية السابقة القديمة واستبعدت التسمية الاغريقية «فيلادلفيا» ونرى أن المصادر العربية لم تذكرها إلا باسمها «عمان» والذي عرفت به منذ أقدم العصور .

وازهرت عمان في العصر الأموي ونستدل على ذلك من الأثار المكتشفة حديثاً في قلعة عمان ومعظمها يرجع عهده الى العصر الأموي. وكان اهتمام خلفاء الأمويين ببادية الأردن أمراً طبيعياً، فقد كانوا يختفون من السكنى في دمشق ويتلهفون الى الانطلاق في البوادي حيث الطبيعة الخلوية التي ألفوها، ولعل ذلك من أسباب انتجاعهم لبادية الأردن حيث بنوا القصور الخلوية التي ما زالت آثارها قائمة حتى اليوم. وقد حظيت البلقاء الواقعة حول مدينة عمان بأهم هذه القصور ومنها : قصر المشتى، قصر الموقر، قصر عمرة، قصر الخزانة، قصر الطوبة، قصر القسطل، قصر الأزرق، قصر خربة المفجر، وقصر الحلابات .

وقد كرس الأمويون اهتمامهم بها فجعلوا فيها عاملاً فالطبري يقول : «فكتب مروان لعامله بدمشق يأمره بالكتابة الى صاحب البلقاء أن يسير الى الحميمة» ، كذلك كان لولاية عمان قوة خاصة من الجند مكلفة بالمحافظة على الأمن وسلامة المسالك والدروب المؤدية الى الحجاز، ولقربها من قصور الخلفاء في البادية، فهي ولا شك تؤدي واجب الحماية للخلفاء وذويهم عند خروجهم للاقامة في هذه الأماكن الخلوية، كما كانوا يستخدمون هذه القوة للقضاء على الفتن والخارجين على الدولة فنرى أن الخليفة الأموي يزيد بن الوليد 126 هـ / 744 م ، دعا مسلم بن ذكوان ومحمد بن سعيد بن مطرف الكلبى لالقاء القبض على يوسف ابن عمر والى العراق الذي هرب الى أهله في البلقاء، فأخذها معهما خمسين رجلاً من جند البلقاء» وأتما هذه المهمة .

وامتازت عمان في العصر الأموي بقلعتها الحصينة اذ كانت على درجة كبيرة من الحصانة والمنعة حتى تمثلها الشعراء في أشعارهم من ذلك قول الأصوص بن محمد الأنصاري :

نظرت على قوت وأوفى عشية بنا منظر من حصن عمان يافع
ونستدل من أقوال الجغرافيين العرب على وجود مسجد جامع في عمان، بلغ الغاية في الاتقان والاحكام ، كان يقع بطرف سوق المدينة ، وكان صحنه يزدان بالفسيفساء وشبه هذا المسجد بمسجد مكة حسناً وجمالاً وروعة بناء ، وأول اشارة الى هذا المسجد حملها إلينا المقدسي في القرن الرابع الهجري ثم أعاد ذكره ياقوت الحموي في القرن السابع الهجري، ومع ذلك فاننا نميل الى الاعتقاد بأن هذا المسجد من بناء الأمويين استناداً الى اهتمامهم بمنطقة الأردن عامة والبلقاء بوجه خاص، بالاضافة الى ولعهم بالبنيان المدني والديني وما اشتهروا به من تأسيس المساجد في دمشق وبيت المقدس والقصور في البادية مثل مسجد قصر الحلابات الذي ما زالت آثاره باقية غير بعيد عن مدينة عمان. ولم يبق من مسجد عمان سوى الأسس التي قام عليها المسجد الحالي الكبير وسط الحي التجاري في مدينة عمان .

وواصلت عمان نشاطها الاقتصادي وأهميتها التجارية والحضارية التي اشتهرت بها منذ العصر الروماني ونلاحظ أنها أصبحت أحد مراكز سك العملة الإسلامية في عصر الدولة الأموية، فالعرب في فتوحاتهم حافظوا على مراكز الحضارة في البلاد المفتوحة وأسهموا في انعاش وتطوير الحياة العامة في تلك البلاد. فواصلت المدن التي كانت تضرب النقود في العهود السابقة نشاطها في عهد المسلمين، ومنها مدينة عمان. ومما يؤكد قولنا هذا هو أن دائرة الآثار العامة في المملكة الأردنية الهاشمية اكتشفت أثناء التنقيب في السوق الروماني وسط مدينة عمان بين عامي 1965 - 1967م مجموعة من الفلوس النحاسية الأموية، عددها سبعة عشر فلساً، ضربت في عمان بعد تعريب النقود الإسلامية زمن الخليفة عبد الملك بن مروان (65 - 86 هـ) ويحتفظ بها الآن في المتحف الأردني بعمان .

هذه الفلوس العمانية ضربت على النمط البيزنطي بعد ادخال التعديلات وأهمها تحويل الصليب الى شكل كروي على صارية مثبتة فوق أربع درجات «في

الظهر» ، وصورة الخليفة الأموي عبد الملك «في الوجه» منتصباً قابضاً على سيفه ومرتبدياً عباءته وكوفيته، هذه الفلوس تعتبر من أقدم أنواع السكة الإسلامية، ومن هنا برز لنا أهميتها، ومن دراسة بعض هذه الفلوس نرى : في الوجه صورة الخليفة وحولها كتب : عبد الملك أمير المؤمنين، أما الظهر فعليه صارية تنتهي بشكل كروي مثبتة على أربع درجات ونجمة ثمانية وعلى يسارها عمان، وعلى الاطار كتب : لا إله إلا الله محمد رسول الله، وقد اطلعت بنفسي على هذه الفلوس في متحف عمان .

بعد ذلك دخلت عمان في فلك الحكم العباسي، وذكرها المقدسي في هذه الفترة بأنها كانت مزدهرة كثيرة التجارات عامرة أهلة بالسكان يزينها مسجدها الجميل المفسس، كما أعطانا صورة عن حياتها الثقافية والاجتماعية وبلغ من اهتمام العباسيين بعمان أنهم أبقوها كما كانت في عهد الأمويين مركزاً للوالي المسؤول عن البلقاء ومنطقة الشراه الممتدة الى جنوب الأردن الحالية ، ومن هؤلاء الولاة الذين تولوا عمان في عهد الدولة العباسية : صالح بن علي ولاء الخليفة العباسي السفاح، علي البلقاء وفلسطين ، وصالح بن سليمان الذي رتبته جعفر بن يحيى والي دمشق علي البلقاء وما يليها في عهد الخليفة هارون الرشيد، وأهم من ولي عمان في تلك الفترة : محمد بن طفج بن الاخشيد .

اتصل محمد بن طفج بعد هروبه من بغداد سنة 296 هـ/908م بأبي منصور تكين بن عبد الله الحربي الخززي والي الشام، وأصبح من أكبر أركانه وأخص رجاله، وأراد تكين أن يكرمه فرأى أن «يتقلد عمان وجبل الشراه» من قبله، فأصبح محمد بن طفج والحالة هذه والياً على المنطقة الممتدة من عمان شمالاً حتى أيلة (العقبة) جنوباً .

وحدث أثناء ولايته لعمان وقوع حادث له أدى الى شهرته ولفت نظر البلاط العباسي في بغداد اليه، وتفصيل ذلك ان ابن طفج وردت اليه سنة 306 هـ/918م أنباء تخبره أن أعراباً من لخم وغيرهم أعدوا كميناً لركب الحجاج القادم من الديار المقدسة قاصداً الشام، فنهض محمد ابن طفج بقواته من عمان والتقى بالركب في نفس الوقت الذي تعرضوا فيه لهجمات الأعراب، فأوقع الاخشيد بهم وبدد شملهم

وأسر منهم عدداً وقتل آخرين وشرد الباقين، وبذلك نجا الركب الشامي من هذا الكمين، وكان مع الركب نفر من حجاج العراق، منهم جارية للخليفة العباسي المقتدر بالله (295 - 320 هـ) ، تعرف «بعجوز» وبعد عودتها الى دار الخلافة ببغداد أخبرت الخليفة بما شاهده من عمل ابن الاخشيد، وأظنبت في الحديث عن شجاعته وشدة بأسه، فكان لذلك أجمل الوقع لدى الخليفة الذي قدر له هذا الصنيع « فانفذ اليه خلعاً وزاده من رزقه » ، ومن ذلك الحين أخذ نجم ابن الاخشيد في صعود فتولى دمشق أولاً ثم مصر ثانياً مؤسساً بذلك الدولة الاخشيدية .

ثم دخلت عمان تحت السيطرة الفاطمية، وولى الفاطميون ولاية على عمان وأبقوها كما كانت سابقاً ، ففي سنة 373 هـ قلد الخليفة الفاطمي العزيز بالله الأمير بكجور ولاية دمشق بدلاً من بلتكين الوالي القديم، فأساء بكجور وظلم وجار فزاد العداء بينه وبين الوزير يعقوب ابن كلس، عندئذ أرسل الخليفة العزيز قائده منير الخادم لمقاتلته والقضاء عليه، فأرسل منير جميع القوات من العرب من قيس وعقيل وفزارة وطلب أن يكون مكان تجمعهم وحشدهم في عمان، وبعدما تم حشدهم «سار الى عمان» ثم تقدموا جميعاً الى دمشق فرحل عنها بكجور وتسلمها منير الخادم .

هرب بكجور الى الرقة وأخذ يرأسل صاحب حلب شريف بن سيف الدولة علي بن حمدان يطلب منه ولاية حمص، فولاه عليها وأرسل بكجور من يتسلمها ولما علم الوزير الفاطمي يعقوب بن كلس بذلك قلق أشد القلق لما كان في نفسه على بكجور، لذلك أرسل الى والي عمان ناصح الطباخ يطلب منه أن يسير الى حمص ويأخذ بها من أصحاب بكجور، فسار ناصح بقواته الى حمص ، ولما علم أعوان بكجور بذلك خرجوا هاربين بأموالهم ولكنه تمكن من أخذهم وسار بهم الى دمشق، ثم عاد الى مركزه في عمان .

وفي سنة 460 هـ اشتدت الفتنة في دمشق ضد واليها بدر الجمالي، مما دعا الخليفة الفاطمي المستنصر بالله الى عزله وتولية الأمير قطب الدولة بازطغان والياً لدمشق ومعه الشريف العلوي أبو الطاهر حيدرة بن مختص الدولة أبي الحسن

ناظراً في أعمالها، فقام أهل دمشق بنهب خزائن بدر الجمالي بسبب اساءته وظلمه لهم. أقام بدر الجمالي في عكا بعد عزله يترصد ناظر دمشق الذي «كان عدواً لبدر الجمالي»، فأخذ يسعى للانتقام منه ولما شعر حيدرة بالخطر هرب، الى عمان البقاء، واختبأ فيها، ولكن بدر الجمالي نجح في اقتناصه بعد اتفائه مع والي عمان بدر بن حازم فقدم اليه اثني عشر ألف دينار وخلعاً كثيرة في مقابل القاء القبض عليه، فغدر بدر بن حازم بحيدرة وأرسله مكبلاً الى بدر الجمالي بعكا فقتله أقبح قتلة، ومثل به حيث سلخ جلده حياً، وكان حيدرة عالماً قارئاً محدثاً جواداً .

ظلت عمان في هذه الفترة تتبوأ مركزها التجاري والحضاري المرموق ونستدل على ذلك من بقائها مركزاً لسك الدنانير الذهبية المنسوبة اليها، فقد عثرت على نص لهلال الصابيء ذكر فيه هذه الدنانير العمانية التي تعود للعهد البويهبي في العراق. وقد تأكد لي صدق هذا النص بالدليل المادي القاطع وهو العثور على أحد هذه الدنانير العمانية الذهبية في العراق. ففي صيف عام 1973م أثناء تنقيبات مديرية الآثار العامة بالعراق في سهل شهرزور (محافظة السلبيانية) عثروا في تل ياسين تبه على تسعة وستين ديناراً ذهبياً داخل علبة نحاسية اسطوانية ومن ضمن هذه المجموعة دينار عماني يحفظ هذا الدينار بالمتحف العراقي ببغداد، قسم المسكوكات تحت رقم 15982 ويبلغ وزنه 4.5 غرام، أما قطره فهو 22 مم وكتب على الوجه : ح لا إله إلا الله وحده لا شريك له القادر بالله، فخر الدولة وفلك الأمة بسم الله ضرب هذا الدينار بعمان سنة ست وثمانين وثلاثمائة .

أما الظهر فكتب عليه : لله محمد رسول الله، الملك العادل، صمصام الدولة وشمس الملة أبو كاليجار، محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

واستناداً الى هذا الدينار نرى أن مدينة عمان في سنة 386 هـ ضربت دنانير لحساب البويهبيين في العراق فالبويهبيون كانوا يعتقدون المذهب الشيعي وهم على اتصال بالفاطميين فسمحوا لدعاتهم نشر عقائد مذهبهم في العراق وغيرها من البلاد التي كانت خاضعة لنفوذ بني بويه. وهذا يؤكد وجود علاقات تجارية ومذهبية بين عمان والعراق والفاطميين في الشام ومصر، وخصوصاً اذا علمنا ان

المقدسي ذكر ان غالبية سكان عمان في هذه الفترة شيعة . وأرى أن هذه الدنانير ضربها الفاطميون تكريمًا للبويهيين لتمتين الأواصر بينهما ولتحقيق أطماعهم في العراق .

ثم تغلب الأتراك السلاجقة على بعض بلاد الشام وتمكنوا من إقامة أمارات مستقلة لهم فيها، ومن بينها دمشق وبيت المقدس وغيرها، وبذلك أصبحت عمان والبلقاء والشراه تابعة لامارة دمشق السلجوقية .

وفي فترة الصراع الصليبي في بلاد الشام استمرت عمان إحدى مراكز البلقاء العمرانية بعيدة عن السيطرة الصليبية، كما شهدت حركة جيوش نور الدين محمود زنكي بقيادة أسد الدين شركوه إلى مصر رغم اعتراض القوات الصليبية في الكرك (بفتح الكاف والراء) والشوبك لها ومحاولتها النيل منها ولكنها فشلت في مسعاها، وتمكن نور الدين من احكام سيطرته على مصر وأصبح صلاح الدين نائبه فيها، وبذا تكونت جبهة قوية ضمت القاهرة ودمشق تستطيع التصدي للفرنج في مملكة بيت المقدس اللاتينية .

وقد كانت بارونية الكرك الصليبية في منطقة شرقي الأردن الجنوبية تشكل حاجزاً منيعاً بين مصر والشام، تمنع الاتصال وتجعله محفوفاً بالأخطار، وكان نور الدين محمود زنكي يرى سرعة مواجهة بارونية الكرك وفتح الطريق أمام العسكر وقوافل الحجاج والتجار، خصوصاً وأن الطريق بين مصر والشام كان عن طريق الأردن الحالية فقط بعد استيلاء الفرنج على الساحل الفلسطيني كله. فقرّر عزمه على توجيه ضربة قوية الى هذه الامارة، وفي مستهل شعبان سنة 565 هـ (ابريل - نيسان 1170م) خرج على رأس حشوده من رأس الماء بحوران قاصداً الكرك، ثم وصلت جموعه الى البلقاء وخيم في عمان عدة أيام حتى استراحت قواته. وقد نقل الينا المؤرخ أبو شامة ذلك عن العماد الكاتب الذي كان مشاركاً في هذه الحملة حيث قال : «ثم توجهنا الى بلاد الكرك مستهل شعبان ونزلنا أياماً بالبلقاء على عمان، وأقمنا على الكرك أربعة أيام نحاصرها نصبنا عليها منجنيقين» ، ولكن نور الدين لم يتمكن من فتحها فرفع الحصار عنها وعاد الى دمشق .

وبعد وفاة نور الدين زنكي أصبح صلاح الدين سيد الموقف في مصر وبلاد

الشام فنقل نشاطه الى دمشق لمقارعة الخطر الصليبي، وفي سنة 579 هـ/1183م خرج بقواته لحصار الكرك متبعاً في طريقه الزرقاء وعمان وحسبان، ثم خيم على الرية قرب الكرك وتقدم منها الى الكرك ونصب عليها سبعة مجانيق ضخمة، ولكنه عاد ففك الحصار عنها لمناعتها وحصانتها .

وبعد معركة حطين 583 هـ/1187م واستسلام الكرك والشوبك دخلت منطقة شرقي الأردن في فلك الحكم الأيوبي فاقطع صلاح الدين الكرك والشوبك لأخيه العادل، وبعد صلح الرملة 588 هـ/1192م أضاف اليه الصلت والبلقاء واشترط عليه أن يقدم كل سنة ستة آلاف غرارة غلة تحمل من البلقاء والصلت الى بيت المقدس، وهذا يؤكد لنا غنى هذه المنطقة ووفرة غلاتها حتى أواخر القرن السادس الهجري .

ثم تشكلت امارة الكرك الأيوبية المستقلة سنة 626 هـ/1229م بزعامة الملك الناصر داود، وكانت تشمل الكرك وأعمالها والصلت وعجلون والبلقاء والأغوار جميعها ونابلس وأعمال القدس وبيت جبريل والخليل. ونتيجة للأمن والاستقرار الذي نعمت به الأردن في هذه الفترة، فقد بقيت مدينة عمان زاهرة عامرة ذات تجارة يؤمها التجار من دمشق وبغداد وغيرها، ومما يؤكد ما ذهبنا اليه أن الجغرافي والأديب ياقوت الحموي أمها في تجارة لحساب سيده في بغداد .

وعند اجتياح قوات المغول بلاد الشام واستسلام دمشق 658 هـ/1260م، تقدموا الى منطقة شرقي الأردن فهدموا قلعة عجلون والصلت ، ووصلوا الى زيزاء قرب عمان ، ومن المعتقد أن هذه القوات اقتحمت مدينة عمان ودمرت ما شاءت فيها من عمران وقتلت أعداداً كبيرة من سكانها شأنها في ذلك شأن العديد من مدن بلاد الشام .

وبعد هزيمة المغول في عين جالوت 658 هـ/1260م ، أولى السلطان الظاهر بيبرس منطقة الأردن اهتمامه الخاص فأعاد بناء قلعتي عجلون والصلت التي دمرهما المغول، ولا شك أن مدينة عمان حظيت باهتمامه، فأسبغ عليها من رعايته وازداد بذلك رخاؤها، ومما يؤكد ذلك أن أحد المؤرخين المعاصرين لهذه الفترة وأعني به ابن شداد، ذكر في اعلاقه الخطيرة أن عمان هي مدينة البلقاء وانها مدينة

كورة الظاهر التابعة لدمشق، فهي في أواخر القرن السابع الهجري مدينة ومركز كورة من كور دمشق .

ومنذ أوائل القرن الثامن الهجري أخذت حسابان تنازع مدينة عمان وتنافسها في زعامة البلقاء، وشاركها في ذلك الصلت. وعند منتصف القرن الثامن الهجري عادت لمدينة عمّان الصدارة وأصبحت المركز الهام من هذه المنطقة كما كانت سابقاً، ففي عهد السلطان حسن بن محمد بن قلاوون الثانية (755 - 762 هـ) ، أولى نائبه الأمير صرغتمش اهتماماً خاصاً بمدينة عمان ، وجعلها أم تلك البلاد، فالمقريري يقول : «ونقل إليها الولاية والقضاء من حسابان وجعلت أم تلك البلاد» .

أما عن الحركة العلمية بها فنجد الكثير ممن ينتسبون الى مدينة عمان والبلقاء منهم أحفاظ والمحدثون والفقهاء والأدباء والقضاة، تزخر بهم كتب التاريخ والتراجم العربية .

ومنذ القرن التاسع الهجري أخذت حسابان والصلت تتنازعا زعامة البلقاء، وتحولت مدينة عمان مع الزمن الى قرية صغيرة، وفي العصر العثماني نزح إليها جماعات من الشراكسة، وبقيت على هامش الأحداث حتى مطلع القرن الحالي لتصبح عاصمة العمونيين عاصمة للمملكة الأردنية الهاشمية .

1997/2/5 م



مكتبة
المفتدين

دراسة في تاريخ مدينة الصلت « السلط » في العصر الإسلامي

الاسم ومدلوله :

(الصلت) ، « بالالف ولام لازمتين في أوله ، وفتح الصاد المهملة المشددة وسكون اللام وبعدها تاء مثناه » ، تصحيف للكلمة الرومانية اللاتينية Saltus وتعني (الغابة) وقد أكدت المصادر العربية غنى منطقة الصلت بالغابات الكثيفة الملتفة .

الصلت في كتب الجغرافيين العرب :

ورد ذكر مدينة الصلت في بعض كتب الجغرافيين العرب، فأبو الفداء يقول :
(وينبع من تحت قلعة الصلت عين كبيرة، ويجري ماؤها ويدخل في بلدة الصلت، وللصلت بساتين كثيرة، وحب الرمان المجلوب منها مشهور في البلاد، وهي بلد عامر أهل بالناس) . أما الدمشقي فيقول : (ومدينة السلط، ولها عمل كبير كالزرقاء، والصويت، وجبل بني عوف وجبل بني هلال). ولكن القلقشندي يصفها قائلاً : (وهي بلدة لطيفة من جند الأردن في جبل الغور الشرقي، في جنوب عجلون، على مرحلة منها) .

الصلت في العصر الأيوبي :

أخذت مدينة الصلت تتبوأ مركزها في التاريخ الإسلامي منذ العصر الأيوبي، فنلاحظ أن كتب التاريخ تردد ذكرها مع منطقة البلقاء. وبعد أن استولى صلاح الدين على بيت المقدس سنة 583 هـ / 1187م تابعت قواته تحرير فلسطين وشرقي الأردن من الفرنج، وفي السنة التالية عندما استسلمت الكرك والشوبك له أقطعها لآخيه الملك العادل، ثم أضاف إليه سنة 588هـ / 1192م الصلت والبلقاء واشترط عليه أن يقدم في كل سنة (ستة آلاف غرارة غلة ، تحصل من السلط

والبلقاء الى بيت المقدس) .

وفي سنة 594 هـ / 1198م جعل العادل ابنه المعظم عيسى نائبه في دمشق، فأصبحت أملاكه تضم : بلاد الساحل، وبلاد الغور، وأرض فلسطين، والقدس، والكرك، والشوبك، والصلت، وصرخد. فاختص المعظم عيسى منطقة شرقي الأردن برعايته واهتمامه، فأقام فيها التحصينات العديدة، ونشر الأمن والاطمئنان في ربوعها، فقضى على الفتن والتمرد، وطبعها بطابع إسلامي خالص. فأعاد بناء المدن والقرى التي تأثرت بسبب ويلات الحروب بين المسلمين والصليبيين وساعد الأهالي في زراعة الأشجار والثمار، وحفر الآبار والصهاريج، فازدهرت تلك المدن وعمرت .

وفي سنة 626 هـ / 1229م دخلت الصلت في حكم الملك الناصر داود ابن المعظم عيسى، ضمن امارة الكرك الأيوبية وبسبب أطماع السلطة نشب النزاع بين الأمراء الأيوبيين، واشتد الخلاف بين الناصر داود والملك الصالح اسماعيل صاحب بعلبك .. وبينما كان الصالح نجم الدين أيوب في نابلس، وهو في طريقه الى مصر للاستيلاء عليها ، تمكن الصالح اسماعيل من الاستيلاء على دمشق في 27 صفر 637 هـ / 28 أيلول 1239م ، فاضطر نجم الدين أيوب على البقاء في نابلس. ينتظر ما تسفر عنه الأحداث فاهتبل الناصر داود هذه الفرصة وأرسل قواته الى نابلس فآلقت القبض عليه ، واقتاده الى قلعة الكرك ومعه جاريتيه شجر الدر أم خليل، وأنزله بدار السلطنة ورتب من يخدمه، ويقدم إليه كل ما يشتهي من طعام وشراب، أما خزانة الصالح نجم الدين أيوب ونساؤه، وخيله، فقد أمر الناصر داود بارسالها الى الصلت، حيث حفظت في قلعتها، وبقيت هناك حتى تم الصلح بين الطرفين في 17 شعبان 637 هـ / 21 آذار 1240م .

إلا أن تطور الأحداث أدى الى تحالف الصالح نجم الدين أيوب مع الخوارزمية، ضد الملك الناصر داود صاحب الكرك، ولكن هذا التحالف لم يدم طويلاً، بسبب خلاف نشب بينهما، فعمد الخوارزمية الى مكاتبة الناصر داود، الذي وجد فيهم حليفاً جديداً ضد ابن عمه، وقوة يحقق بها مطامعه، وبمساعدهم تمكن من الاستيلاء على الأغوار، ونابلس، والخليل، وولى عليها من قبله .

ثم استطاع الملك الصالح نجم الدين أيوب من هزيمة الخوارزمية عند حمص

في محرم 644 هـ / 1246 م ، وقتل مقدمهم حسام الدين بركة خان ، وشتت قواتهم ، فقسم اتجه الى الشمال حيث دخلوا في خدمة التتار ، وقسم اتجه الى الجنوب ، فنزلوا البلقاء في الأردن. فعندما علم الناصر داود بمقدمهم ، وكان اذ ذاك في الكرك ، خرج إليهم واجتمع بهم واستخدمهم في قواته ، فأرسل بعضهم الى نابلس فاستولوا عليها لحسابه . أما عائلاتهم وأولادهم ، فقد أرسلهم جميعاً الى قلعة الصلت للاحتماء بها .

إزاء ذلك ارتأى الصالح نجم الدين أيوب، وضع حد لأطماع الناصر داود، فأرسل جيشاً بقيادة فخر الدين يوسف ابن الشيخ، وعندما وصلت هذه القوات الى فلسطين سمع الخوارزمية بوصولها، فتركوا نابلس وتوجهوا الى الصلت، حيث التقوا بقوات الملك الناصر داود، التي حشدتها هناك، وفي 27 ربيع الآخر 644 هـ/ أول أيلول 1246م التقى الفريقان عند مدينة الصلت، ودارت المعركة بين الطرفين، وبعد جهد استطاعت قوات ابن الشيخ أن تهزم قوات الملك الناصر، وتقدمت الى مدينة الصلت وتمكنت من الاستيلاء عليها بعد أن أحرقتها .

أما الناصر داود فقد تمكن من الهروب الى الكرك واحتفى خلف أسوارها، ثم لحق به الخوارزمية حلفاؤه، وحاولوا دخول الكرك، ولكنه لم يمكنهم من ذلك، وأوصد دونهم الأبواب، أما ابن الشيخ فقد واصل تقدمه نحو الكرك، فنزل على وادبها، وجرت المراسلة بينه وبين الناصر داود، وعندما عجزت قوات ابن الشيخ من اقتحام الكرك لحصانتها ، عمد الى أملاك الناصر فاستولى عليها وهي : القدس، ونابلس، وبيت جبريل ، والصلت ، والبلقاء ، وولى ولاية من قبله ، فخرجت الصلت في الحالة هذه من سيطرة امارة الكرك الأيوبية، لتدخل في نفوذ سلطان مصر .

وفي سنة 648 هـ/ 1250 م ، تمكن الناصر يوسف صاحب حلب، من الاستيلاء على دمشق، وما أن تم له ذلك حتى أرسل قواته الى عجلون، فحاصرها وتمكن منها. وبعد ذلك أرسل قواته الى مدينة الصلت، فاستولى عليها، وبقيت الصلت وعجلون في يده حتى نهاية حكمه .

الصلت تحت الحكم المملوكي :

عجز الأيوبيون في بلاد الشام من إيقاف الحشد التتاري، الذي اجتاح

العراق، واستمر في التقدم الى بلاد الشام، فوقع الجفل فيها، وخاف الناس في دمشق، فهاجر قسم منهم الى مصر وبعض الحصون المنيعة، أما صاحب دمشق الملك الناصر يوسف فقد جبن، فترك دمشق متوجهاً الى الديار المصرية. إلا أنه عدل عن رأيه، فعاد الى البلقاء في الأردن واحتفى باحدى القبائل العربية هناك .

وأما دمشق فقد استسلمت لقوات التتار، فدخلها كتبغانوين، نائب هولوكو في ربيع الأول 658 هـ / 1260م ثم أرسل قواته، فأغارت على بلاد فلسطين والأردن. فدمرت كل ما في طريقها من عمران، ووصلت الى أطراف غزة، وبيت جبريل، ونابلس، والخليل. أما في الأردن فقد اجتاحت التتار منطقة عجلون والبلقاء، ووصلوا الى بركة زيزاء، ثم قصدوا مدينة الصلت، فتصدى لهم نائبها بدر الدين محمد بن الحاج الناهض الأتابكي، ولكنه عجز عن الصمود، فسلمها لهم، فهدموا القلعة، وأبقوه نائباً فيها .

وبعد معركة عين جالوت، تمكن الظاهر بيبرس من اعتلاء عرش السلطنة في مصر، فأولى عناية خاصة بمنطقة الأردن الشمالية (عجلون والبلقاء) ، أما الصلت، فقد أمر باعادة ترميم ما خربه التتار في قلعتها، فوسع أبراجها وجدد خنادقها، ودعم تحصيناتها وخزن بها الأزواد والغلال، والذخائر. وأقر فيها نائبها السابق بدر الدين محمد بن الحاج، بعد أن شحنها بالأجناد والعتاد والمماليك، وجعلها مع قلعتي عجلون والكرك من المراكز الدفاعية الأمامية الهامة، التي أعدها لمراقبة تحركات الفرنج والتتار معاً .

الصلت مركز لولاية البلقاء :

كانت ولاية البلقاء تابعة لنيابة دمشق في عصر دولة المماليك، وكانت تعتبر بداية الصفحة القبلية. إلا أنها كانت في بعض الأحيان تضم الى نيابة الكرك، كما حدث في عهد السلطان الملك المسعود بن الظاهر بيبرس - أثناء ثورته في الكرك، وتجنيد القوات - عندما توسع شمالاً على حساب البلقاء، وضم الصلت الى نيابته (امارته) .

تمكن الملك المنصور قلاوون من انتزاع الصلت من أبناء الظاهر بيبرس ، عندئذ أولاهها عناية خاصة ، وجعل منها نيابة مستقلة عن دمشق . ففي سنة

678 هـ ، أمر بتعيين الأمير جمال الدين آقش الشريفي نائباُ بها، ونعتها (بنياية السلطنة الشريفة بالصلت والبلقاء) . وفي اعتقادنا أن السلطان المنصور قلاوون جعلها نياية، وأوكل أمرها لأمير جاندار، وقواه بالرجال والسلاح، للوقوف أمام مطامع الملك المسعود، ومنع توسعه نحو الشمال، ولم تثبت هذه النياية أن أعيدت الى وضعها القديم، كاحدى ولايات نياية دمشق، بعد زوال الخطر، والقضاء على ولدي الظاهر بيبرس في الكرك .

ولكن مركز الولاية انتقل فيما بعد من الصلت الى مدينة عمان، وأصبحت اذ ذاك مقراً للوالي ، وأضيف إليها مدينة الصلت . فالقلقشندي يقول : (جمعاً بين الاختين حلالاً، والذروتين منالاً ، والرايتين نهوضاً بهما واستقلالاً) ولكن مركز الولاية تحول مرة أخرى الى مدينة حسبان .

وفي سنة 757 هـ/1356م ، قام الأمير صرغتمش نائب السلطنة في الديار المصرية، ببناء مدرسة في مدينة عمان، ونقل إليها الولاية والقضاء من حسبان، فأصبحت مدينة عمان مركز ولاية البلقاء وحاضرتها، بحيث تتبعها كل من مدينتي الصلت وحسبان .

وجرت العادة أن يعين في ولاية البلقاء أمير طبلخاناه. يعاونه بعض الجند، بالاضافة الى القاضي الشافعي لفض الخصومات، وقد نقلت الينا المصادر ذكر قاضي حسبان، وقاضي الصلت، وقاضي البلقاء (عمان) . وكان متولي ولاية الصلت يخاطب في المراسلات الرسمية المملوكية بكلمة (صدرت والسامي) . ويذكر القلقشندي نسخة توقيع بولاية البلقاء والصلت من انشاء ابن نباتة نورد منه ما يلي : (وتيمناً بغرة الصلت، فإن الصلت هو الجبين الواضح بشره، وكيف لا؟ وهو الكافي الذي جمع مال الجهات فأوعى، وقسم فنون المصالح جنساً ونوعاً وحسم أدواءها بحسام رفقه كرهاً وطوعاً ..) .

الحركة العلمية في الصلت :

وضع الأيوبيون البذور الأولى للحركة العلمية في الأردن، التي أبتعت وازدهرت في العصر المملوكي، فانتشرت المدارس ودور العلم في جميع أرجاء البلاد، ونبغ العديد من رجال الأردن في شتى العلوم والفنون . أما مدينة الصلت فقد

اشتهرت كثيرها من المدن الأردنية بمعاهدها العلمية، وفقهاؤها وعلمائها، ومن تلك المعاهد نذكر :

المدرسة السيفية :

أنشأها الأمير سيف الدين بكتمر الحسامي (ت 729هـ) صاحب الأوقاف الكثيرة في كثير من البلاد، في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة 724هـ، وسماها باسمه، وجعلها لتدريس المذهب الشافعي، ونذكر من الذين عملوا في هذه المدرسة، الفقيه شهاب الدين ابن سليمان بن داود الكوراني الشافعي (ت 784هـ). وكانت تضم هذه المدرسة خزانة كبيرة للكتب، وقف الفقيه شهاب الدين بن سليمان أعداداً منها لخدمة طلاب الصلوات المشتغلين في العلم .

علماء وفقهاء من الصلوات :

ونتيجة للنهضة العلمية في مدينة الصلوات، فقد نبغ وبرز منها العديد من العلماء والفقهاء، نذكر منهم على سبيل المثال :

1. شمس الدين بن محمد بن ابراهيم راضي الصلتي، ولد سنة 710 هـ / 1310م، واشتغل وقرأ كتباً عديدة، ثم قدم دمشق، حيث اشتغل في التدريس بالمدرسة الشامية، ثم دخل مصر بعد سنة 770 هـ ، وتمكن من تولي القضاء في قوص وغيرها من المدن المصرية. وبقي فيها الى أن مات سنة 784 هـ / 1382م ، وقد جاوز السبعين عاماً .

2. قاضي القضاة بدر الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد الهكاري الصلتي الشافعي، الامام العالم العلامة. اشتغل في القدس وكتب وقرأ فيها، ثم ولي قضاء الصلوات ، وبعدها قضاء البر . ثم تولى بعدئذ قضاء القدس والخليل ونابلس، وكان آخر ما ولي قضاء حمص، حتى سمي (قاضي حمص) وبقي فيها الى أن توفي سنة 786 هـ / 1384م ولم يبلغ الخمسين سنة، من مؤلفاته: اختصر (ميدان الفرسان) في ثلاثة مجلدات .

3. عبد المنعم بن أحمد بن محمد بن عبد المنعم بن أبي بكر الصلتي، ولد في شعبان سنة 712 هـ / 1312م . نشأ في دمشق وسمع على العديد من فقائها نذكر منهم : زينب بنت أحمد بن عمر بن شكر، ومحمد بن يعقوب بن الجرايدي.

حدث في بيت المقدس، وسمع عليه هناك البرهان الحلبي ثلاثيات الديرمي وغيرها. وقد حدث عند أبو حامد بن ظهيرة وغيره توفي سنة 788 هـ / 1386 م .

4. بدر الدين محمد بن البرهان ابراهيم بن وهيب الصلتي، ولد سنة 706 هـ ، وأخذ العلم من الفقهاء والعلماء في زمانه، وكان يحفظ المنهاج. بدأ علمه في نابلس حيث تولى نيابة القضاء فيها، ثم تولى قضاءها، وفيما بعد تولى قضاء بعلبك، وبقي هناك الى أن تقلد قاضي القضاة تاج الدين الى دمشق حيث استنابه في الحكم، وفي الخطابة أيضاً، ثم تولى قضاء طرابلس واستمر فيها نحو عشرين سنة .

وعندما كان في دمشق درس في المدرسة الاكزية، ومشیخة الاسدية، وأمامة مسجد القصب . وقد حدث بدر الدين الصلتي في نابلس وبعلمك ودمشق وطرابلس ولم يكن قاض أقدم منه في القضاء. كان يجيد السيرة في الأحكام، سمع منه الكثير، نذكر منهم : الأنفي وابن سعد، حوالي سنة 751 هـ ، وكان اذ ذاك قاضياً لبعلمك. توفي سنة 786 هـ / 1384 م وكان يقرض الشعر ومن قوله هذه الأبيات :

زار الحبيب بلا وعد تقدمه
فلك الهنا يا مقلتي فتمتعي
سرحت طرقي في بهاء جماله
وحفظت جوهر لفظه في مسمعي
وفرشت خدي في الثرى لقدمه
وجعلت منزله حشاي وأضلعي
ونحرت نومي في الجفون قرى له
وسألته وصلاً بغير تمنع
فأجابني بالمنع وهو مودّع
أهلاً به من زائر ومودع

5. محمد بن عباس بن محمد بن حسين بن محمود بن عباس الصلتي، سبط البرهان بن وهيب، ولد سنة 745 هـ/1344 م، ونشأ في حجر خاله البدر بن وهيب، فاشتغل قليلاً. وأذن له الشمس بن خطيب يبرود في الافتاء. ولي قضاء القدس وغزة معاً. ذهب الى القاهرة وسعى في قضاء المالكية بدمشق، فلم يتم له ذلك، إلا أنه تولى قضاء الشافعية فيها سنة 804 هـ. وبقي في دمشق الى أن مات معزولاً عن القضاء في جمادى الأولى سنة 807 هـ / 1404 م .
6. الشيخ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن شمس الدين محمد الصلتي الشافعي، ولد سنة 776 هـ، كان فقيهاً عالماً، له اشتغال كثير في العلوم باشر نيابة الحكم في القدس مدة طويلة، توفي سنة 852 هـ/1448 م .
7. تاج الدين عبد الوهاب بن القاضي برهان الدين ابراهيم ابن قاضي الصلتي الشافعي، كان من أعيان العدل بالقدس، وكان القضاة والحكام يعظمونه لاخلاقه وعلمه. باشر تحمل الشهادة في القدس مدة طويلة، وفي آخر أيامه أقام بمدينة الرملة، وتوفي في المدرسة الخاصكية هناك، ودفن عند قبة الجاموس، وذلك في صفر سنة 873 هـ/1468 م .
8. عبد الوهاب بن أبي بكر بن أحمد بن محمد التاج الحسيني الصلتي الشافعي، عرف في بلده (بابن الواعظ)، قدم القاهرة واختص بالبقاعي، وحضر معه عند الشيخ ابن حجر العسقلاني، وأخذ العلم أيضاً في المدرسة الظاهرية على نحو أربعين شيخاً، ثم عاد الى الصلتي، وتولى القضاء فيها، وقد حدثت منافرة بينه وبين البقاعي حين فر الأخير لدمشق. وكانت له آراؤه الخاصة في المؤرخين، توفي سنة 893 هـ/1487 م .
9. خليل بن محمد الصلتي الشافعي، رحل الى دمشق وأخذ العلم على علمائها، نذكر منهم (الغزي) وابراهيم اليميني. وقد كان يحضر الدروس برفقة صديقه الشيخ أحمد بن أحمد الطيبي، توفي في ريعان الشباب عن بضع وعشرين سنة، وذلك سنة 934 هـ/1527 م .
10. ابراهيم بن موسى السيد برهان الدين الحسيني الصلتي، أخذ العلم على علماء دمشق وفقائها. كان ملازماً للقاضي شهاب الدين القرفور، ثم لولده القاضي ولي الدين، وكان يكتب بالشهادتين والوكالة عند الناس، ويكتب في رسم

شهادته (الواعظ) ، عمل ناظراً للمدرسة البادرائية في دمشق، وتوفي سنة 935 هـ/1528م ، ودفن بترية الشيخ أرسلان، وقد حضر جنازته أعيان دمشق وعلمائها .

11. الشيخ الصالح نعمة الصلتي، كان لجدّه (عين الملك) زاوية بسفح قاسيون، وقد كان الشيخ نعمة ملازماً لعمل الوقت في زاوية جدّه . وصف الشيخ نعمة بأنه كان محباً لطلبة العلم، صالحاً تقياً، توفي في مدينة الصلت سنة 946 هـ/1539م .

قلعة الصلت :

أ - بناؤها :

كانت مدينة الصلت ضمن أملاك الملك المعظم عيسى بن العادل الأيوبي. وقد ذكرنا أن المعظم وجه عنايته الى منطقة شرقي الأردن، وحرص على سلامة طرقها ومسالكتها فنشر الأمن والاطمئنان في ربوعها وحدث بعد سنة 594 هـ/1198م أن مرت قافلة من البلقاء، بها عدد من جواري الملك المعظم، وعند مرورها بالقرب من الصلت، تعرض لها جماعة من بني رحمان سكان قرية كفر يهودا المجاورة. فهاجموا القافلة، وسبوا الجواري، وأخذوا بعضهم ولما وصل النبا الى الملك المعظم عيسى غضب كثيراً، وأعد حملة قادها بنفسه، وهاجم القرية واستأصل أهلها جزاء ما فعلوه .

وتأميناً لسلامة المسالك المؤدية الى الشام ومصر والحجاز، رأى الملك المعظم ضرورة بناء قلعة في هذا المكان، كي تشرف على المسالك والطرق المارة من البلقاء. فاختار رأس جبل يعرف بـ (رأس الأمير) ، وبنى عليه قلعة الصلت، وكان موضع هذه القلعة غابة كثيفة. فأمر بقطعها وقد اختار المعظم عيسى هذا المكان الاستراتيجي الهام، الذي به أصبحت قلعة الصلت تسيطر على المنطقة الممتدة من غور الأردن الى البلقاء .

ب - بعض الآثار الباقية منها :

لم يبق من آثار قلعة الصلت سوى قاعدة برج مربع، وبقايا خندقها الكبير

الذي كان يحيط بها، بالإضافة الى جزء من جدار هذه القلعة الذي كان يشرف على الخندق. وقلعة الصلت كانت احدى قلعتين إسلاميتين أيوبيتين بنيتا في الأردن. الأولى قلعة عجلون التي بناها صلاح الدين الأيوبي سنة 580 هـ/1184م . وقلعة الصلت هذه التي بناها المعظم عيسى. لذلك فان التقاليد المحلية الأردنية، تظهر في كل أنماط البناء وللمواد المستعملة فيها .

هذه القلعة كانت في مكان استراتيجي حصين، يحيط بها سور قد شق في الصخر الصلب. وكغيرها من القلاع الأردنية كان لها جسر خشبي فوق مدخلها يرفع ليلاً وعند الخطر. ومن بقايا برجها الوحيد الباقية للآن نقرر أن بعض أبراجها كانت مربعة الشكل وأنها بنيت من الحجر المنحوت، تماماً كقلعة عجلون . أما موارد القلعة من المياه، فكانت تحصل عليها عن طريق نفق حفر خصيصاً، يصل القلعة بنبع ماء، يقع في الجهة الجنوبية الشرقية من التل، الذي تنهض عليه القلعة .

بقيت قلعة الصلت قائمة طيلة الحكم المملوكي للأردن ، وكذلك في العصر العثماني، وعندما نشب الصراع بين مصر والدولة العثمانية ، اجتاح ابراهيم باشا الأردن ودمر قلاعها ، ومن جملتها قلعة الصلت حيث انتسفا بالديناميت سنة 1840م . والظاهر أن حجارته نقلها المواطنون، فلم يبق منها سوى آثار دراسة، تحكي قصة مدينة عريفة، وقلعة حصينة .



1997/1/19 م

الأهمية التجارية والاقتصادية لمدينة العقبة (أيلة) في العصر الإسلامي

بقيت أيلة على طريق المواصلات بين الشام ومصر والجزيرة العربية، وقد عرف الرسول (ﷺ) أهمية هذا الموقع، ففي الرسالة التي وجهها الى أسقف أيلة يوحنا بن رؤبة وأهلها سنة 9 هـ / 630م ، أشار الى علاقاتها التجارية البحرية مع الجنوب العربي والساحل الافريقي والهند والصين بدليل ان الأمان الذي منحه الرسول (ﷺ) لأيلة وأهلها نص صراحة على اعطاء الأمان (لسفنهم وسياراتهم في البر والبحر لهم ذمة الله ومحمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر) . واشترط عليهم تقديم الضيافة لمن يمر بهم من المسلمين لوقوعها على طريق الشام والحجاز .

وفي الفتوحات العربية الإسلامية كانت أيلة الطريق الذي سلكه جيش عمرو بن العاص الى فلسطين، وكانت أول وقائع المسلمين مع الروم وقعة العربية فهزموهم وقتلوا أحد قوادهم. وقد قدم الأنباط من أيلة جنوب الأردن المساعدات لجيوش المسلمين (وكانوا مع المسلمين يكونون عيوناً لهم وفيوجاً، وكان المسلمون يرضخون لهم ويعطونهم) ، واستخدمهم أبو عبيدة وخالد بن الوليد في نقل البريد الى المدينة وقادة المسلمين في الشام. وقز لعبت أيلة دوراً له أهميته في حركة الفتوحات الإسلامية في الشام، كحلقة وصل وربط بين الشام والحجاز ومصر، ففي سنة 18 هـ (639م) قدم الخليفة عمر بن الخطاب الى الشام ليرى ما حل بالمسلمين بعد طاعون عمواس ونزل بأيلة في ضيافة أسقفها .

أما أهمية أيلة الاقتصادية فتتمثل بمبلغ الثلاثمائة دينار الذي صالحوا الرسول (ﷺ) عليه سنوياً ، مما يدل على ثراء أهلها وازدهار تجارتهم البحرية والبرية. ومن المعروف ان العلاقات التجارية الشامية الحجازية قديمة جداً، فقريش العدنانية كانت تحتكر الطريق التجاري البري بين الشام والجنوب العربي، أما عرب جنوب الشام فكانوا يقومون بنقل السلع الشامية الى المدينة المنورة والحجاز

كالبُر والشعير والزيت والتين والقماش وغيرها من المصنوعات. هذا مع الأخذ بعين الاعتبار ان التجارة والملاحة في البحر الأحمر لم تتأثر بظهور الإسلام، بل على العكس فقد ازدهرت الحياة الاقتصادية على جانبي البحر الأحمر، بل ان البحر الأحمر نفسه أصبح بحيرة إسلامية بعد أن استولى العرب المسلمون على اليمن والشام ومصر. ففي عام الرمادة 18 هـ (639م) الذي أصاب الحجاز أرسل أبو عبيدة 4000 راحلة تحمل الطعام من الشام ، أما عمرو بن العاص فقد أصلح قناة تراجان القديمة التي تربط النيل بالقلمز وسماها قناة أمير المؤمنين ، وأرسل المراكب عبر البحر الأحمر محملة بالحبوب الى المدينة ومكة ، وهكذا ربطت مصر بالحجاز بخط ملاحى عبر القلمز والبحر الأحمر .

وقد أدرك العرب المسلمون منذ الوهلة الأولى أهمية البحر الأحمر استراتيجياً واقتصادياً، فعندما عارض عمر بن الخطاب حفر قناة تراجان القديمة التي تربط النيل بالبحر الأحمر، كان الهدف منه منع أي وجود أجنبي في البحر الأحمر وموانئه الجنوبية ، خصوصاً وان العرب كانوا على علم بالصراع الذي نشب بين بيزنطة وفارس للسيطرة على تجارة البحر الأحمر ومداخله الجنوبية ، وكان للحبشة دورها في هذا الصراع ، فخشية عمر بن الخطاب كانت في محلها خصوصاً وان الأخطار ما زالت محدقة بدولة المسلمين الفتية من فارس وبيزنطة .

وبقي الاهتمام بالبحر الأحمر وتجارته وموانئه الشمالية والجنوبية حيويماً للدولة الأموية التي ارتبطت مع أوروبا بعلاقات تجارية وشيخة، فالحاج الانكليزي Arculf زار الاسكندرية في عهد معاوية بن أبي سفيان سنة 50 هـ / (670م) فذكر بأنها مركز واسع للتجارة العالمية. أما في البحر الأحمر فكانت السفن تأتي محملة بسلع الشرق وتفرغها في أيلة والقلمز لتتنقل الى سواحل البحر المتوسط. كما ارتبطت أيلة بالقلمز بخط ملاحى عبر الأحمر فكانت السفن تأتي من مصر الى أيلة محملة بالسلع والحبوب ومن هناك تنقلها القوافل براً الى دمشق .

وسيطر العباسيون فيما بعد على طرق التجارة الدولية الثلاثة : البرية عبر آسيا والبحرية عبر الخليج العربي والثالثة عبر البحر الأحمر ، وأصبحوا هم سادة التجارة الدولية منذ القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) . فابتدوا طريق الخليج العربي وأواسط آسيا مركز الصدارة ، ولكن طريق البحر الأحمر والموانئ

الجنوبية للجزيرة العربية تعود للظهور ويصبح لها أهميتها التجارية في العصر الفاطمي. فقد زار المقدسي في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) بلاد اليمن وتحدث عن عدن قائلاً : (بلد جليل عامر أهل حصين، دهليز الصين وفرضة اليمن، وخزانة المغرب ومعادن التجارات، كثير القصور، مبارك من دخله، مثير لمن سكنه، مساجده حسان، ومعايش واسعة، وأخلاق طاهرة، ونعم ظاهرة) . ثم يحدثنا المقدسي عن الأهمية التجارية لليمن بشكل عام وعدن بشكل خاص، فيذكر ان بحرهما يتصل ببحر الصين الذي تصل بواسطته سلع المشرق فتفرغ المراكب تلك السلع في عدن ومن ثم تنقل الى الحجاز ومصر والشام برأً وبحراً. وقد مكث المقدسي في اليمن عاماً كاملاً ونقل إلينا قائمة بالسلع المشهورة في اليمن فقال : اليمن معدن العصائب والعقيق، والادم والبرود، والشروب والرقيق، والمسك، والزعفران ، والبقم ، والساج ، والساسم والعاج واللؤلؤ والديباج والجزع واليواقيت ، والابنوس ، والنارجيل ، والقند ، والاسكندوس ، والصبر ، والحديد والرصاص والخيزران، والليف والغضار، والصندل، والبلور، والفلفل والنيل، والعنبر والورس والشروب والورق والانطاع، وجلود النمرور. وكانت تجارة المشرق تدر أرباحاً طائلة على التجار وبتجارات الصين تضرب الأمثال. وبقي ميناء أيلة على خليج العقبة في العصر الفاطمي من الموانئ الهامة في حركة التجارة الدولية القادمة من الشرق الافريقي والمحيط الهندي في طريقها الى الاسكندرية عبر الفسطاط. أما في وسط الحجاز فقد ازدهر منذ أوائل القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ميناء جدة فرضة مكة على البحر الأحمر. فكانت السفن القادمة من عدن ترسو فيه لتفرغ حولتها، ومن ثم تنقل بواسطة سفن البحر الأحمر الى القلزم وأيلة لان تلك السفن لا تستطيع الاستمرار نحو الشمال بسبب صعوبة الملاحة في البحر الأحمر. وكانت الدولة الفاطمية تجبي الضرائب والمكوس بجدة على السلع القادمة إليها من مصر والهند والصين على الشكل التالي :

حمل الحنطة	نصف دينار
سفت ثياب الشطوي	3 دنانير
سفت ثياب الديبقي	ديناران
حمل الصوف	ديناران

سلة الزعفران دينار

رأس الرقيق دينار

إلا أن أيلة وتجارة البحر الأحمر تعرضت الى تدخل أجنبي منذ أوائل القرن السادس الهجري (الحادي عشر الميلادي) باستيلاء مملكة بيت المقدس اللاتينية على أيلة وتحويل جزء من تجارة البحر الأحمر والمحيط الهندي الى القدس. ولم يكتبوا بذلك بل ان اسطولهم الحربي كان مثار تهديد لا للتجارة الجنوبية فحسب بل للأماكن المقدسة الإسلامية في مكة والمدينة. ولكن سرعان ما عادت السيادة العربية الإسلامية الى أيلة على يد صلاح الدين الأيوبي في سنة 566 هـ (1170م)، فأنهى الوجود الصليبي في خليج العقبة. ولم يكتب صلاح الدين بذلك، بل سارع الى ضم بلاد اليمن فأصبح يسيطر على مداخل البحر الأحمر الجنوبية وأطرافه الشمالية في أيلة والقلم، وسخر كل تجارة الهند والصين عبر البحر الأحمر لخدمة رحلة نضاله ضد الفرنج .

فانتعشت الحركة التجارية في عدن وزاد عمرانها، وقصدها الناس من شتى الأقطار للسكن والاقامة والتجارة ، فصاروا أصحاب خير ونعم . وقد عمل الأيوبيون على حماية التجارة العدنية، فأرسلوا قطعاً من أسطولهم عرض البحر لاستقبال المراكب القادمة من المحيط الهندي وحراستها حتى تدخل الميناء وذلك خوفاً من غارات القراصنة. وبلغ عدد المراكب المحملة بمتاجر الهند والصين التي تصل ثغر عدن في العصر الأيوبي بين 70 - 80 مركباً، وبلغ مقدار العشور المتحصل منها 80,000 دينار .

ولكن الأهمية الاقتصادية والتجارية للبحر الأحمر وموانئه الجنوبية والشمالية تظهر واضحة في العصر المملوكي، فقد شجع الممالك التجارة والسياحة وأصدروا المراسيم التي تشجع على زيارة بلادهم. ومما جاء في ذلك المرسوم الذي أصدره قلاوون ووزعه على جميع البلدان (فمن وقف على مرسومنا هذا من التجار المقيمين باليمن والهند والصين والسند وغيرهم، فليأخذ الأهبة في الارتحال إليها ، والقدوم عليها، ليجد الفعال من المقال أكبر، ويرى احساناً يقابل في الوفاء بهذه العهود بالأكثر، ويحل منها في بلدة طيبة ورب غفور، وفي سلامة من النفس والمال). وأقام الممالك الطرق وأنشأوا الخانات (الخنادق) على طول طرق

الاتصالات والمواصلات في مصر والشام خدمة لحركة التجارة الداخلية والدولية. فأقاموا ديواناً للمكوس في العقبة لتمكيس السلع القادمة بحراً، حتى ان خراج أيلة ووجوه الجبايات فيها بلغ ثلاثة آلاف دينار سنوياً. أما السلع القادمة بطريق القوافل من الجنوب العربي فكانت تمكس في (بويب العقبة) جنوبي أيلة. أما القوافل القادمة من الجنوب العربي الى دمشق فتمكس في جسر الحسا قرب الكرك وكان متحصله 10 آلاف مثقال من الذهب سنوياً، وقد أقام المماليك الدرك على الطرق حفاظاً على أمنها وسلامة المتنقلين عليها .

واعتبرت مدينة عدن في العصر المملوكي ميناء بلاد اليمن الرئيسي على ساحل المحيط الهندي، وقد شاهد ابن بطوطة الحركة التجارية الواسعة في عدن فقال «انها مرسى أهل الهند، تأتي اليها المراكب العظيمة من : سندابور وهنور، وفاكنور، ومنجورور، وفندرينا، وقالقوط، والشاليات، وقولم، وغيرها من المدن الواقعة على الساحل الهندي، بالاضافة الى مراكب الصين، وسيلان، وجزر الشرق الأقصى» . وكان يسكن في عدن التجار من مختلف البلدان من الهند والصين ومصر وبلاد الشام. وقد اشتغل أهل عدن بتجارة الهند والصين والساحل الافريقي، وتجمعت لديهم الأموال الطائلة «وربما كان لأحدهم المركب العظيم بجميع ما فيه لا يشاركه فيه غيره، لسعة ما بين يديه من الأموال، ولهم في ذلك تفاخر ومباهاة» . أما أهل عدن فلقد وصفهم ابن بطوطة بأنهم أهل دين وتواضع وصلاح ومكارم أخلاق، ويحسنون الى الغريب، ويؤثرون على الفقير، ويعطون حق الله من الزكاة على ما يجب .

واعتبرت عدن في العصر المملوكي من أكبر محطات تبادل السلع بين الشرق والغرب ، وظلت لفترة طويلة لا يتعداها تجار الهند والصين ، فكانت السلع تنقل منها الى جدة على متن مراكب ممالكية ومنها الى موانئ أيلة والقلمز والطور. وزخرت أسواقها بالسلع الافريقية القادمة من الحبشة والشرق الافريقي ، وكانت أسواقها تعقد ليلاً لشدة الحرارة فيها. أما تجار عدن فكانوا من أنشط التجار وانتشروا في البلدان والأقطار طلباً للتجارة والكسب، فكانوا يسافرون الى الشام ومصر والحبشة والهند ومدن وموانئ الخليج العربي. وكان يتوافر في أسواق عدن سلع من بلدان مختلفة منها : الحديد والنحاس والزئبق والمرجان، والملابس

الصوفية والقطنية والحريرية، والعقاقير، والعمور، والتوابل، والسكر، والأرز،
والحنطة، والدقيق، والصابون، وزيت الحار، وزيت الزيتون، وعسل النحل، وجوز
الهند، واللبان، والجاوي، وخشب السند، وعود الند، والراوند والمسك .

أما تجار الكارمية فكان لهم مركز ممتاز في عدن فلهم مؤسساتهم
ومصارفهم المالية والتجارية. وكان حكام عدن يفرضون الضرائب العالية على
المراكب القادمة من الهند والصين، وأحياناً يستخدمون القسوة مع هؤلاء التجار.
رقد ساعد هذا التصرف الى نجاح السياسة المملوكية التي كانت تهدف الى تحجيم
ميناء عدن واحتلال ميناء جدة مكانه، وذلك بعدما ساءت العلاقات السياسية بين
المماليك وسلطين بني رسول في اليمن، ومحاولات المماليك فتح اليمن وانتزاعها
من بني رسول الذين أساؤوا الى التجار المصريين، بالاضافة الى اضطراب الاحوال
الداخلية في اليمن والتنازع على السلطة، وسياسة التعسف التي اتبعها سلطين
اليمن مع التجار، منذ بداية القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) ،
فالسultan الناصر أحمد الرسولي أساء الى التجار وأرغمهم على الفرار من عدن الى
جدة والهند ومليبار تخلصاً من المظالم التي كانوا يتعرضون اليها .

أزاء ذلك قام المماليك بتحرير المراكب التجارية من الرسو في ميناء عدن،
وحرموا على تجار مصر والشام دخول الميناء، واتبعوا ذلك بتخفيض الضرائب في
موانئ جدة وينبع وفرضوا رسوماً عالية على المراكب التي يثبت انها ترسو أو
تمر بعدن. وقد ساعدت هذه السياسة التي إتبعها المماليك منذ عهد السلطان
برسبائي على تحول مراكب الهند والصين من عدن الى ميناء جدة مباشرة،
فازدهرت جدة، وأصبحت بندراً عظيماً، واستمر ذلك حتى أواخر العصر المملوكي.
وكانت السلع الشرقية والافريقية تنقل من جدة بمراكب صغيرة ثلاثم الملاحة في
البحر الأحمر المليء بالشعاب المرجانية - الى موانيء : الطور وأيلة، وجعلت الدولة
المملوكية ميناء أيلة (العقبة) لمزور السلع المتجهة الى الشام، أما الطور فقد خصص
للسلع المتجهة الى مصر .

وفي دولة المماليك الجراكسة ازدهرت حلب في شمال الشام كاهم مركز
لتجارة الشرق، ففي أواسط القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) بلغ
عدد الجمال التي تصل الى حلب 15 ألف جمل ، ولكن أهميتها بدأت تضعف في

نهاية القرن نفسه، بسبب اغلاق الطرق البرية عبر آسيا الصغرى نتيجة لحروب العثمانيين مع جيرانهم، ولم يبق لحلب سوى مصدر واحد ألا وهو طريق البحر الأحمر، فقد كانت السفن تفرغ شحناتها في أيلة ومنها تنقلها القوافل براً الى حلب وكانت حلب تصدر متاجرها عن طريق ميناء طرابلس على البحر المتوسط الذي أصبح الميناء الثاني بعد بيروت لتجارة الشام الداخلية والخارجية. لذا اهتم المالك بميناء أيلة وبنوا فيه رصيفاً جديداً خدمة لحركة السفن التجارية وقد جدد هذا الرصيف وغيره من المنشآت في أيلة السلطان قانصوه الغوري سنة 914 هـ (1508م) ، وعهد الى عدد من المهندسين والبنائين على رأسهم المهندس خاير بك المعمار لاتمام هذه المهمات .

وخدمت أيلة منذ فجر الإسلام حركة الحجاج القادمين من الأندلس والشمال الافريقي وأواسط افريقيا وجنوب بلاد الشام ، فكانت قوافلهم تقيم في أيلة ثلاثة أو أربعة أيام، فتقام لهم سوق عظيمة يقصدها الناس من معظم أنحاء الشام للتجارة والكسب . وقد وصف ابن فضل الله العمري هذه السوق بأنه لا يوجد مثلها في أمهات المدن، ويخزنون فيها بعض الزاد والعلف للعودة . وخدمت هذه القوافل حركة التجارة الحجازية فأبو المحاسن يذكر ان عدد الجمال التي تتجمع في مدينة جدة فرضة مكة المكرمة على البحر الأحمر 80 ألف جمل ، فتحمل هذه القوافل في عودتها السلع الشرقية بعد أن تفرغ ما لديها من سلع هناك . وأصبح ميناء جدة هو الميناء الرئيسي لسلع الشرق ، فبنوا حولها سوراً وزودوه بالأبراج الحصينة والمدافع ، وكانت الدولة تفرض ضريبة العشر على تجار الهند القادمين الى جدة. وفي أواخر دولة المماليك الجراكسة ارتفعت ضريبة العشر الى عشرة أمثالها (فامتنعت التجار من دخول بندر جدة وآل أمره الى الخراب) . فاضطرت الدولة الى فرض المكوس والضرائب الكثيرة، واحتكرت بعض السلع لأنها كانت تعاني من أزمة اقتصادية خانقة في مواردها المالية بسبب ظروفها الداخلية، وحروبها مع العثمانيين، وتعرض طرقها التجارية لتدخل الدول الأوروبية في البحر الأحمر والمحيط الهندي، وقد أدى ذلك الى تراجع التجارة الشرقية عبر عدن والبحر الأحمر وموانئه .

1997/8/12 م



مدينة مجلون وأهميتها التجارية والاقتصادية في العصر الإسلامي

تذكر بعض المصادر عن وجود المنشآت والمرافق التجارية في المدن الشامية والمصرية خدمة لحركة التجارة الدولية، نذكر منها : القيساريات، ودور الوكالة. وخصصت هذه المنشآت للتجار القادمين الى تلك المدن، فبعضها اقتصت بالتجار الأوروبيين، وأخرى بالتجار الوافدين من الأقطار العربية والإسلامية. وقد عكف الأمراء المماليك على بناء هذه القيساريات للكسب واستثمار الأموال. والقيسارية Caesarea أو Cesarie كلمة لاتينية ظهرت في بلاد الشام قبل مصر، وهي بناء مستطيل أو مربع، مسقوف تعلوه الرباع، وهي في العادة غرف تؤجر للتجار والصناع للاقامة فيها، وتحتوي كل قيسارية على عدد من المحال التجارية التي تؤجر للتجار والمصانع الصغيرة، بالاضافة الى أنها تعرض السلع للبيع بالجملة، ولكل قيسارية حارس بحرسها، وباب ضخم يفتح ليلاً .

ومن المرافق الأخرى التي خدمت حركة التجارة الدولية : دور الوكالة، ويرى المقرئزي أن لا فرق بين الوكالات والخانات والفنادق والقيساريات، فهي جميعها أبنية ومؤسسات تقوم بجانب مهمة البيع والشراء، بمهمة اقامة التجار الوافدين من الخارج، وحفظ أموالهم وخبزنها، بالاضافة الى انها تؤدي مهمة البيع بالجملة والتجزئة. ولكل دار من دور الوكالة هذه وكيل يسمى (وكيل دار الوكالة)، يقوم بخرن سلع زبائنه ومن ثم بيعها، وتأمين ثمنها لأصحابها، فهو يقوم مقام (الصيرفي) ، فالتجار الأجانب كانوا يودعون أموالهم عنده وهو بالمقابل يدفع لهم ما يقابلها من عملة بلادهم .

ولقد أقام المماليك في منطقة شرق الأردن الخانات خدمة للتجار والمسافرين، كان بعضها يقدم الغذاء وحذاء الخيل مجاناً للمارين والمقيمين فيها. ووجد بجانب كل خان بركة ماء وحانوت ليتزود منه المارون بما يشاؤون ، أطلق عليها (فنادق مبيت القوافل) Caravanserais حيث يستريح التجار ودوابهم فيها. نذكر منها :

خان العقبة، وخان عنيزة، وخان معان، وخان الحسا، وخان القطرانة، وخان ضبعة، وخان عمان، وخان الكرك. وما زال، ماثلاً للعيان من هذه الخانات: العقبة، والحساء، والقطرانة، وضبعة. وهي أبنية مربعة الشكل من طابقتين بداخلها ساحة سماوية يتوسطها بئر ماء، ويحف بهذه الساحة بوائك كبيرة لمبيت الدواب وخزن البضائع، أما الطابق العلوي ففيه غرف صغيرة أعدت لمبيت التجار والمسافرين. ووجد في كل خان مسجد صغير، وفي زواياه الأربعة أبراج للدفاع ومزاغل للمراقبة، ولكل خان مدخل واسع ببوابة ضخمة تغلق ليلاً، فهي والحالة هذه خانات حصينة، «ياوي إليها من أجهاء المساء، وينام أمناً من طوارق الأعداء» .

ولقد وجدت هذه المرافق والمنشآت التجارية في بعض المدن الشامية والمصرية كدمشق، وحلب وبيروت، وعكا، وطرابلس، وبيت المقدس، والقاهرة، والإسكندرية، فما هو دور المدن الأردنية من هذه المرافق؟ فمن خلال رصدنا للنصوص التاريخية ومشاهداتنا الأثرية، وجدنا الخانات في بعض المدن: كعمان، والكرك، ومعان، والعقبة. أما القيساريات والوكالات فلدينا نص يؤكد وجودها في مدينة عجلون، فلماذا وجدت في هذه المدينة الداخلية، وهل يعني وجودها ارتباط مدينة عجلون بعلاقات تجارية خارجية؟ .

تقع عجلون في وسط جبال عجلون عند أقدام جبل عوف الذي يطل عليها من الغرب، وتبعد عن عمان مسافة 73 كم وعن اربد مسافة 32 كم، وعلى قمة جبل عوف أقام صلاح الدين الأيوبي قلعة عجلون سنة 580 هـ (1184م) في موقع استراتيجي جيد. فهل كانت عجلون مدينة بالمعنى المتعارف عليه في العصور الوسطى؟ أم أنها مجرد بلدة Town، تقدم خدمات محلية بسيطة الى سكانها والمناطق المجاورة؟ أو أنها لعبت دوراً أكبر في بيع السلع والصناعات الى أسواق أخرى متعددة، وكان لها اتصالها التجاري مع الأسواق المجاورة؟ فان كانت كذلك فهي والحالة هذه مدينة City. وباعتقادي ان عجلون كانت مدينة بالمفهوم الوسيط، فهي مركز حكم، وفيها مركز للقضاء، وحياة الضرائب، وقوات عسكرية تقيم في قلعتها، بالإضافة الى دورها الاقتصادي والتجاري والثقافي المتميز في منطقة شمال الأردن .

وعجلون مدينة جميلة في قلب منطقة خصبة، تحف بها الأودية ذات الينابيع

الغزيرة، وغابات السنديان، وأشجار الزيتون والفاكهة المختلفة. وقد نالت حظاً وافراً في العصر المملوكي، فجعلوا منها نيابة تابعة لمدينة دمشق، وفي أحيان جعلوها نيابة مستقلة يكون التعيين فيها من قبل السلطان بالقاهرة. ومما يؤكد، وجهة النظر هذه، النص الموجود في النقش الكائن على ضريح الصحابي أبو عبيدة عامر ابن الجراح في غور الأردن، وكان السلطان الظاهر بيبرس 658 - 676 هـ (1260 - 1277م) قد كلف نائب عجلون ببناء هذا الضريح ومما جاء في النقش :
.... وذلك بنظر الأمير الأجل الأعمال الكبير ناصر الدين منكلي الجاشنكير الظاهري السعيدني نايب مملكة عجلون المحروسة في شهر ذي الحجة سنة خمس وسبعين وستمئة .

وهنا نلاحظ أن الظاهر بيبرس ولى على عجلون أميراً برتبة جاشنكير، وهي إحدى وظائف أرباب السيوف، ويتولاها أمير مقدم، وهي من المراتب الكبرى في الدولة المملوكية. وقد فعل الظاهر بيبرس ذلك لأن الدولة المملوكية كانت في طور التأسيس، ولاهمية منطقة عجلون وقربها من دمشق العاصمة الثانية للدولة المملوكية، التي كانت تمثل المركز الثاني بعد القاهرة، ونوابها كانوا دوماً طامعين بالسلطنة، وفيها يثرون على الدولة. وعجلون في هذه الحالة تستطيع الوقوف في وجه أي توسع لنائب دمشق، بالإضافة إلى أن الخطر الفرنجي ما زال قائماً في فلسطين والساحل الشامي، أضف إلى ذلك عناصر المعارضة الأيوبية في بلاد الشام الذين كانوا ينتهزون أي فرصة للانقضاض على المماليك. وقد قام السلطان المنصور قلاوون، بنفس التصرف فيما بعد عندما جعل من الصلت (السلط) نيابة مستقلة على رأسها أمير برتبة كبيرة ولديه قواته كي يقف في مواجهة السعيد والمسعود أبناء الظاهر بيبرس في الكرك الذين حاولوا التوسع شمالاً حتى ان قواتهم وصلت إلى صرخد في حوران. وهذا يدل على الأهمية التي كان يوليها السلطان الظاهر بيبرس لمدينة عجلون ومنطقة شمال الأردن الحالي، بسبب مزايها الاستراتيجية والاقتصادية. وبعد وفاته أعيدت عجلون نيابة صغيرة تابعة لدمشق، لتصبح في أواخر دولة المماليك الثانية (الجراسكة) نيابة مستقلة يتم تعيين نائبها من السلطان بالقاهرة .

وبسبب هذا الاهتمام بمدينة عجلون في العصر المملوكي نلاحظ أنها بلغت

أقصى درجة من التقدم العمراني والثقافي والاقتصادي، فابن بطوطة مر بها في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) ووصفها قائلاً : وهي مدينة حسنة، لها أسواق كثيرة ، وقلعة خطيرة ، ويشقها نهر ماؤه عذب. ومن هنا فقد أقام الأمراء فيها القيساريات نذكر منها : قيسارية الأمير سيف الدين بكتمر، وقيسارية الأمير تنكز بن عبد الله نائب دمشق وقفها على البيمارستان الذي بناه في مدينة صفد، والقيسارية القديمة .

وللتدليل على أهمية عجلون الاقتصادية والتجارية، هناك ثلاث وثائق الأولى ذكرها مفضل بن أبي الفضائل في كتابه : النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد في الجزء الذي نشر في فرايبورغ بألمانيا سنة 1973م ويتضمن الأحداث من سنة 717 - 741 هـ . ففي صفحة 41 ذكر أن سيلاً عظيماً دهم مدينة عجلون في سنة 728 هـ (1328م) ، وأثبت صورة المحضر الذي أرسله نائب عجلون الى دمشق واصفاً فيه ما فعله السيل في المدينة. والوثيقة الثانية ذكرها النويري في كتابه نهاية الارب في فنون الادب الجزء 31 (مخطوط) ، وهي نسخة المحضر المرسل من مدينة عجلون الى دمشق يورد فيها ما أحدثه السيل بالمدينة من خراب (لوحة 19) . أما الوثيقة الثالثة فهي نسخة الكتاب الوارد من عجلون والتي ذكرها الشيخ شمس الدين الجزري في تاريخه ونقلها عنه الشيخ علم الدين بن البرزالي، وأثبتها النويري في سفره لوحة 91، 92 (مخطوط) .

ومن خلال استعراضنا للنصوص الثلاثة نجد تبايناً كبيراً فيها من حيث الديباجة وتفاصيل السيل، وأكثرها ايجازاً ما أورده مفضل بن أبي الفضائل، ويأتي في المرتبة الثانية النص الذي ذكره النويري وأسماه نسخة المحضر المرسل من عجلون، أما النص الثالث الذي نقله النويري عن الجزري والبرزالي فهو أكثرها دقة، وبه معلومات تفصيلية عن أسواق مدينة عجلون، ونستطيع أن نجمل ما جاء في هذه الوثائق بما يلي :

أولاً : القيساريات

- 1 - قيسارية الأمير سيف الدين بكتمر
- 2 - قيسارية الأمير تنكز بن عبد الله
- 3 - القيسارية القديمة .

ثانياً : الوكالات

1 - دار الطعم .

ثالثاً : الأسواق

1 - سوق الأدميين (الجلود)

2 - سوق القطنين

3 - سوق الأقباعين (معد لبيع الأقباع، وهي عمامة من حرير أو جوخ)

4 - سوق الخليعيين (السوق الذي يتعاطى بيع الثياب القديمة الملبوسة)

5 - سوق الفرّابين

6 - سوق الفاميين (سوق الحبوب من حنطة وحمص وعدس وغير ذلك)

7 - سوق العلافين

8 - سوق الحصريين

9 - سوق اللحامين

10 - سوق السقطيين (السوق الذي يباع فيه أحشاء الذبائح)

11 - سوق الصاغة

12 - سوق البز العتيق

13 - سوق أم معبد

14 - سوق الأمير سيف الدين

15 - سوق الأمير ركن الدين

16 - حوانيت الخبازين

17 - حوانيت الطباخين

18 - حوانيت البضاعة

19 - حوانيت القاضي فخر الدين

20 - حوانيت الدق (الدق هو البقايا المتفحمة من بذور الزيتون والمشمش

المحروقة في الأفران وتستخدم للتدفئة والطبخ) .

رابعاً : المرافق الأخرى

1 - المصبغة (الدباغة)

2 - العرصة (وتسمى أحياناً عرصة الغلال، ساحة واسعة لبيع الغلال)

3 - المسجد والجامع وأوقافه

4 - الحمام السلطاني

5 - الحمام الصالحي

6 - مسلخ المعز والضأن .

7 - مسلخ أم معبد .

8 - المدرسة اليقينية .

9 - الجسور والقناطر والاقباء المبنية فوق الأودية .

10 - الطواحين .

فمن خلال الأرقام السابقة نلاحظ عدد المنشآت والمرافق التجارية وغيرها التي هدمها السيل، وهي جزء من منشآت ومرافق المدينة، مما يدل على تشعب أسواق هذه المدينة وكثرتها، وتأكيد لما جاء في وصف ابن بطوط لها، والذي يهمننا هنا هو القيساريات ودار الطعم. فالوثائق الثلاث أكدت وجود (دار الطعم) في مدينة عجلون، فما هي وظيفتها؟ ذكر القلقشندي عن وجود (دار الطعم) في مدينة دمشق وقال انها «بمثابة الوكالة بالديار المصرية»، ووجدت في دمشق ووظيفة (شاد دار الطعم)، وهو الموظف المسؤول عن جمع المكوس من السلع المباعة في هذه الدار. فدار الطعم اذن هي دار وكالة بالمفهوم الذي كان شائعاً في مصر، أضف الى ذلك ان داراً للوكالة وجدت في بيت المقدس في العصر المملوكي، ونعتتها بعض الوثائق (بالوكالة المرعية). وقد وجد ما يسمى (بوكيل التجار) الذي كان يقوم بمهمة الخازن للسلع أو المودع لها، وهو المسؤول عن التجار الأجانب الذين لا يستطيعون الاشراف على أعمالهم شخصياً، ويتقاضى وكيل التجار عمولة نظير خدماته التي يقدمها لزيائنه، ويرتبط عادة بعلاقات مع القناصل الأوروبيين المقيمين في بعض المدن الشامية والمصرية. وعلى ذلك فهل كانت مدينة عجلون مكان جذب للتجار الأجانب، بحيث أقيمت لهم فيها دار الطعم هذه (دار الوكالة)؟ .

ان النصوص التي بين أيدينا لا تسعفنا عن وجود مثل هؤلاء التجار الأوروبيين صراحة في عجلون، ولكننا نأخذ بعين الاعتبار تلك الوكالات التي

أنشئت في القاهرة للتجار الشاميين والعراقيين والشرقيين من المسلمين، نذكر منها، وكالة قوصون التي خصصت للتجار الشاميين لخبز الزيت والسمن والصابون، واللوز والجوز والحلويات وكل أنواع السلع الشامية الأخرى، وفندق عمارة، وفندق دار التفاح، وفندق الملك السعيد بدار الرمان، وفندق مسرور .

وقياساً على ذلك فاننا نستطيع القول بأن (دار الطعم) في مدينة عجلون كانت مخصصة للتجار الأجانب سواء الأوربيين - خصوصاً وأنه سمح لهم الوصول الى بعض المدن الداخلية كدمشق وحلب وبغداد - أو التجار العرب، أو التجار المسلمين القادمين الى عجلون من خارج بلاد الشام. وتذكر الوثائق ان شاد دار الطعم كان موجوداً في مدينة عجلون كي يجبي المكوس من السلع والبضائع الواردة والمباعة في هذه الدار. ويعني ذلك أن تجارة عجلون في العصر المملوكي كانت تجارة كثيفة واسعة، مما يؤكد أهمية هذه المدينة الاقتصادية والتجارية في العصر المملوكي، فقد قدر المؤرخ الجزري قيمة الخسائر التي نجمت عن سيل عجلون عام 728 هـ (1328م) ما قيمته 500ر000 درهم، عدا الغلات والمواشي والبساتين والطواحين ظاهر مدينة عجلون، وهذا مبلغ كبير بالنسبة لمدينة داخلية كمدينة عجلون .

خلاصة :

وهكذا فاننا نستطيع التأكيد على ارتباط منطقة شرق الأردن بالتجارة الدولية، سواء أكان ذلك عن طريق التجارة البعيدة والتجار القادمين الى دار الطعم في مدينة عجلون شرقيين أو غربيين، أو عن طريق القوافل التجارية المارة من خلاله في طريقها الى الحجاز، أو القادمة من الجنوب العربي عبر الحجاز وأيلة (العقبة) في طريقها الى دمشق وحلب وبيت المقدس، أو تلك المارة من خلال العقبة براً في طريقها الى الحجاز والجنوب العربي، أو القادمة من تلك المناطق في طريقها الى مصر والشمال الافريقي. أو تلك القادمة من مصر الى بلاد الشام وبالعكس عبر مدينة اربد، ولنا أن نذكر احصائية على سبيل المثال لاحدى القوافل التجارية المارة عبر منطقة شرق الأردن في طريقها من مصر الى دمشق في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ، فكانت كما يلي :

أولاً : عدد الدواب فيها :

9000 جمل

4500 رأس من الخيل

4500 رأس من البغال

ثانياً : الأموال :

6,000,000 ر من الذهب العين

ثالثاً : البضائع والسلع ما قيمته

6,000,000 دينار

ولا شك أن لهذه القوافل العملاقة التي كانت تجوس دروب الأردن أثرها الاقتصادي الظاهر على البلاد، بالإضافة إلى قوافل الحاج الشامي والمصري السنوية التي كانت فرصة لأهالي وتجار البلاد للتجار معهم، وكانوا يرافقونهم حتى الديار الحجازية، أما التجار النصارى فكان يسمح لهم بمرافقتهم حتى العلا فقط، فابن بطوطة يقول : (واليها تنتهي تجار نصارى الشام ، لا يتعدونها ويبيعون الحجاج الزاد وسواه) .

1997/3/21 م



التجارة الدولية وطرق المواصلات والاتصالات في الأردن في العصر الإسلامي

كان لبلاد الشام دور متميز في التجارة الدولية منذ أقدم العصور، ونالت منطقة شرق الأردن حظاً وافراً من تلك التجارة، منذ أصبحت الطرق التجارية تتجه جنوباً نحو البحر الأحمر والجزيرة العربية عبر الأردن الحالي، فازدهرت لذلك كل من: أيلة (العقبة)، والبتراء، وعمان، وجرش. ولم تنته العلاقات التجارية بين الشام والغرب الأوروبي بالفتوحات الإسلامية، فالعرب لم ينكفئوا على أنفسهم بل أعطوا التجارة والعلاقات الدولية عناية خاصة، وفتحوا أسواق الشام وتجارته أمام الغرب الأوروبي بشكل واسع. وظلت أهمية منطقة الأردن قائمة طيلة العصر الإسلامي، فدروها بقيت تخدم حركة المواصلات والاتصالات البريادية بين الحجاز وبلاد الشام ومصر، ففي العصر الأموي يبرز ثراء مدينة دمشق التجاري والاقتصادي في وسط بلاد الشام، وتبقى منطقة الأردن همزة الوصل بين العاصمة والجزيرة العربية. وفي العصر العباسي تنشط مدينة عمان، ويتجلى دورها بخروج شبكة من الاتصالات والمواصلات منها، لترتبطها بالعراق والحجاز وبقية المدن الشامية. ثم ان دور بلاد الشام في التجارة الدولية ازداد في فترة الوجود الفرنسي في المنطقة، فالدويلات الإيطالية قدمت المساعدات العسكرية لمملكة بيت المقدس، نظير امتيازات تجارية في الموانئ الشامية. وبقي هذا الدور قائماً في العصر المملوكي، فاستقر بالمدن الشامية وموانئها عدد من تجار فينيسيا، وجنوا، وأمافي، وفلورنسا، وقطونيا، وبرشلونة، وفرنسا، وبعض مواطني شمال أوروبا المرافقين للجنويين والبنادقة. كما استقر فيها وكلاء الشركات الأجنبية الأوروبية التي لها فروع في الشرق، نذكر منها شركة Bardi الفلورنسية، التي كان لها فرع في مدينة بيت المقدس.

ثم أن سبب اقبال الأجانب على بلاد الشام بهذا الشكل يرجع الى اتصالاتها الوثيقة والمباشرة مع أسواق الشرق، كما أن مدنها وموانئها كانت مهبط الحجاج

المسيحيين الغربيين الى بيت المقدس. وكانت مواسم الحج الإسلامية والمسيحية فرصة للتبادل التجاري بين الشرق والغرب، ومن هنا فان أسواقها فاقت أسواق مصر في تنوع السلع التي ترد إليها. وفي هذا المجال لا بد أن نذكر قبرص التي كانت تستورد التوابل والسلع الشرقية عبر الطريق القادم من سوريا وموانئها، وقد اكتظت أسواقها بالسلع الشرقية، حتى ان أحد الرحالة الألمان قال : (ان التوابل في قبرص أكثر من الخبز في المانيا) . وكانت دمشق وبيت المقدس وحلب وبيروت وعكا ويافا وطرابلس وصور وصيدا من المدن التي ازدهرت تجارياً في العصر المملوكي، واستقر فيها عدد من التجار الأجانب. ومما تجدر ملاحظته ان الدول الأوروبية بنت علاقات تجارية متطورة مع مصر وبلاد الشام، واعتمدت هذه التجارة على السلع المتبادلة بين الشرق والغرب، فالسلع الشرقية تركزت بشكل رئيسي على التوابل، والحديد، والعاج، وبالمقابل تركزت صادرات الغرب الى الدولة المملوكية على الحديد، والأخشاب، وأدوات الملاحة، والرقيق .

وقد لعب طريق البحر الأحمر دوراً متميزاً في نقل السلع الشرقية الى المدن الشامية، واعتبر البحر الأحمر إحدى شرايين التجارة الدولية منذ أقدم العصور. ونهضت مكة في وسط الحجاز كمركز تجاري له أهمية، وارتبطت بعلاقات تجارية قبل الإسلام مع الهند والصين واليمن والخليج العربي، والعراق والشام والساحل الافريقي. واعتمد اقتصادها على التجارة بالدرجة الأولى، فقدرت بعض المراجع صادراتها السنوية من السلع الشرقية بمبلغ 15000ر000 دولار. ولكن التطور الكبير لتجارة البحر الأحمر تظهر في العصر الأيوبي والمملوكي، حتى أصبح بحق أهم شريان دولي للتجارة الشرقية، وذلك بعدما تعطل الطريقان الآخران : طريق الخليج العربي، وطريق أواسط آسيا، بسبب الظروف غير المستقرة سياسية وعسكرية التي ألمت بالأقطار المحيطة بهما . وقد استغل المماليك بذكاء هذا الطريق التجاري ، فسنوا الأنظمة والقوانين التي من شأنها جلب التجار الأجانب الى بلادهم. نذكر من ذلك المرسوم الذي أصدره السلطان قلاوون 678 هـ - 689 هـ (1279 - 1290م) ، للتجار الأجانب في الشرق والغرب يدعوهم لزيارة بلاده وموانئها، وجلب سلعهم، حيث سيلاقون المعاملة الحسنة، والتسهيلات الخاصة، بعيداً عن الجور والظلم، فالعدل في بلاده سيحميهم. ومما ورد في مرسومه قوله :

(فمن وقف على مرسومنا هذا من التجار المقيمين باليمن والهند والصين والسند وغيرهم، فليأخذ الأهبة في الارتحال إليها، والقدوم عليها، ليجد الفعال من المقال أكبر، ويرى احساناً يقابل في الوفاء بهذه العهود بالأكثر، ويحل منها في بلدة طيبة ورب غفور ، وفي سلامة من النفس والمال ومن أحضر معه بضائع من بهار وأصناف تحضرها تجار الكارم فلا يخاف عليه في حق، ولا يكلف أمر يشق، أبقى لهم العدل ما شاق ورفع ما شق ... الخ) . ويرى Lapidus أن حسن الضيافة والتفهم الجيد والمعاملة الحسنة من الممالك، شجعت التجار الأوروبيين للتجار معهم، ثم ان التجار العرب المسلمين كونوا في العصر المملوكي مستوطنات ومراكز تجارية في وسط وشرق افريقيا وفي المدن الهندية والصينية الساحلية وجزر جنوب شرق آسيا، وحماية للتجارة أقام الممالك الدرك لحراسة الطرق التي تنتقل من خلالها المتاجر والسلع المختلفة، وبنوا الخانات والفنادق خدمة للمسافرين، وأشاعوا الأمن والاطمئنان فيها، مما مكن القوافل التجارية التنقل بحرية وأمان في الدروب والمسالك الشامية المختلفة .

وكان ميناء أيلة (العقبة) على الطرف الشمالي للبحر الأحمر دوره في حركة التجارة الدولية، فأيلة اتصلت منذ القدم بالبراء وبصرى بطريق أطلق عليه فيما بعد (الطريق السلطاني) . ولكن دور هذا الميناء يبرز واضحاً في العصر المملوكي ، فقد كانت السفن التجارية ترسو فيه، فابن اياس يذكر عن وجود (قصر في (أيلة) يسكن فيه قباض المكوس بسبب مراكب التجار التي ترد هناك من الهند واليمن والصين وغير ذلك من البلاد) . ومن هذا الميناء تنقل السلع براً عبر الهضبة الأردنية الى دمشق وبيت المقدس وحلب . وساعد في خدمة حركة التنقل هذه خانات: العقبة ، والحسا ، وعنيزة ، والقطرانة ، وعمان ، فأقيمت البرك قرب هذه الخانات لسقيا المسافرين كما أوجد الممالك مركزاً لقباض المكوس في جسر الحسا على أمتار قليلة من الخان ، كان المتحصل منه عشرة آلاف مثقال من الذهب سنوياً. بالإضافة الى مركز آخر أقاموه في (بويب العقبة) جنوب العقبة الحالية ، لتمكيس السلع التجارية القادمة براً من جدة في طريقها الى الشام ومصر عبر أيلة (العقبة) وسيناء .

وخدمة لحركة التجارة البعيدة المارة عبر منطقة شرق الأردن أقيمت

الأسواق الموسمية وبالأخص في فترة مرور قوافل الحاج الشامي والمصري في طريقها الى الحجاز . فقوافل الحجيج هذه خدمت حركة التجارة العابرة (الترانسيت) ، فكان موسم الحج فرصة للتجارة للبيع والشراء وجلب السلع الشرقية من الحجاز، ونقل السلع الشامية بالمقابل . فذكر أبو المحاسن ان مدينة جدة في أواخر العصر المملوكي كانت الميناء الرئيسي للسلع الشرقية ، لذا بنوا حولها سوراً وزودوه بالأبراج الحصينة والمدافع . وكان يصل الى مكة في مواسم وصول سفن الهند الى عدن ما لا يقل عن 80ر000 جمل ، وفي العادة يوقت وصولها في معظم السنوات في موسم الحج ، وتستمر هذه القوافل في طريقها الى دمشق ، ومن ثم تعود بسلع الشام والغرب الأوروبي الى عدن ومنها الى الهند .

وكانت قوافل الحاج الشامي تسير من دمشق وتتجمع في مزيريب قرب درعا، ومنها الى الرمثا فتقيم فيها عدة أيام. وقد دلت الكشوف الأثرية التي أجرتها جامعة اليرموك في موقعها الدائم (موقع جامعة العلوم والتكنولوجيا) القريب من الرمثا عن وجود آلاف القطع الفخارية المملوكية على مساحة كبيرة وفي أماكن متعددة، مما يدل على أن هذه القوافل كانت تقيم في هذا المكان للراحة وللبيع والشراء، وكانت فرصة لتجار المناطق المجاورة، ورجال القبائل العربية لبيع ما لديهم وشراء ما يحتاجونه. ثم تواصل هذه القوافل سيرها الى الظليل الواقعة بين المفرق والزرقاء، ومنها الى الزرقاء وهي بلدة وافرة المياه، فتقيم فيها عدة أيام لتواصل سيرها الى زيزاء قرب عمان، ومنها الى اللجون، ثم الى الثنية خارج الكرك، فتقيم أياماً ثم تواصل سيرها الى معان ومنها الى عقبة الصوان وذات حج في طريقها الى الحجاز. وقد تغير رذب الحاج الشامي أكثر من مرة منذ القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) ، ففي أحيان تسير القوافل من دمشق الى الكسوة ، الصنمين، زرعة، بصرى، ومن بصرى كانت تتجه في فترة الاحتلال الفرنجي لمنطقة جنوب الأردن الى الأزرق، باير، الجفر، الى أن تصل الى معان. أو تتجه من بصرى الى زيزاء رأساً، وقد سلك هذا الطريق ابن بطوطة في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) ، ومن زيزاء الى اللجون، ثنية الكرك، معان، ومن معان الى عقبة الصوان، ذات حج، وادي بلدح، تبوك ثم العلا فالمدينة المنورة. وفي أحيان كان ركب الحاج الشامي يتجه من معان الى أيلة (العقبة) ثم الى تبوك في طريقه الى الحجاز.

ويذكر ابن فضل الله العمري ان أسواقاً كبيرة كانت تعقد في هذه المحطات وصفها بقوله : (وهي قرى عامرة ذوات ماء وأسواق ومعايش وجلابة) . وتذكر المصادر ان سوقاً تجارياً متشعباً كان يعقد في مدينة أيلة (العقبة) في العصر المملوكي وصفه ابن فضل الله العمري قائلاً : (وهو مكان مقصود تأتي اليه أجلاب الشام، وتقام به الأسواق العظيمة الممتدة المتشعبة التي لا توجد في أمهات الأقاليم وكبار المدن. ولعل انه لا يعدم فيها موجود من : الخيل، والابل، والغنم، والدقيق، والشعير، والعلف وأنواع المأكّل والمشارب والمحامل والاكوار والرحال، والسلاح، والقماش، والفرش والأمتعة، وغير ذلك وأيام اقامة الحاج هذا أيام مواسم) .

ولا بد من الاشارة الى أن دمشق ارتبطت بالقاهرة بخط يسير عبر منطقة شمال الأردن في اربد مروراً بالأغوار وفلسطين ، فالقلقشندي يذكر أن المنطقة الواقعة قبلي دمشق والتي عبر عنها (بالصفقة القبلية) ، هي طريق الأبواب السلطانية الشريفة في القاهرة ، وممر التجار قاصدين الديار المصرية ، وتشمل هذه الصفقة بلاد حوران والغور وما الى ذلك ، فالأغوار جميعها كانت داخلة فيها . وقد ربط المماليك بلاد الشام بالقاهرة بخطوط المواصلات البريدية : الطائرة والبرية والمنارات ، وكانت مدينة اربد إحدى هذه المراكز . كما نقلوا الثلج على الجمال من دمشق الى القاهرة عبر هذا الطريق . وقد استخدم هذا الطريق لحركة الجيوش العسكرية المملوكية مروراً بالأغوار واربد. ولهذا السبب فقد بني في مدينة إربد الخانات (الفنادق) خدمة للمسافرين والتجار كما أقيمت لهم بركة كبيرة لسقي دوابهم . وتذكر المصادر أن القوافل القادمة من بخارى وسمرقند وشيراز وأمد وبلاد الأرمن والعراق كان لا بد لها المرور عبر هذا الطريق مروراً بمدينة اربد في طريقها الى القاهرة ، وكانت هذه القوافل تحمل معها صنوف السلع المشرقية والشامية المختلفة . وقد أقام المماليك الجسور فوق نهر الأردن خدمة لحركة المواصلات والاتصالات بين الشام وفلسطين والديار المصرية .

12/3/1997 م



المفتدين

الأردنيون والانتماء القومي ... ثورة الكرك بقيادة الملك الناصر أحمد ومظاهرها القومية

مقدمة

اعتاد المؤرخون والباحثون في التاريخ الإسلامي الوسيط سرد أحداثه بمنأى عن التاريخ العالمي في هذه الفترة، فهل كانت منطقتنا تعيش في معزل عن العالم وأحداثه، وهل كنا في منأى عما يدور حولنا من تغييرات فكرية وحضارية واجتماعية واقتصادية وثقافية؟ وهل كانت علاقاتنا بالعالم محدودة، وهل كنا نعيش ونتحرك في اطار ضيق؟ أم كنا على علم بما يدور في العالم من حولنا، وان كنا كذلك فهل تأثرت منطقتنا ولو قليلاً ببعض التغييرات التي طرأت عليه، خصوصاً وان هناك دراسات عديدة أثبتت صلاتنا الوشيحة بهذا العالم فكراً واقتصادياً وعسكرياً، وان حركة الاتصال والمواصلات بيننا وبينهم كانت قوية. فمنطقتنا العربية كانت في قلب العالم، ومنه تمر أهم طرق المواصلات الدولية التي تربط الشرق بالغرب الأوروبي. ناهيك عن أن منطقتنا العربية وبلاد الشام بالذات كانت مجال اتصال لشعوب العالم المختلفة اغريقية ورومانية وبيزنطية وفرنجية. ثم لوجود الأماكن المقدسة في فلسطين والحجاز فقد أمها العديدون من شعوب الدنيا شرقه وغربه. أضف الى ذلك أن الدولة المملوكية قد شجعت السياحة الداخلية والخارجية فأصدر السلطان قلاوون أول مرسوم سياحي يحض الناس على زيارة بلاده من الشرق والغرب. اذن نحن كنا في قلب العالم وعلى اتصال وثيق به ومع أحداثه، ومن هنا فلم نكن نعيش في جزيرة نائية مغلقة، لذلك فأني أدعو أن تكون دراستنا لتاريخنا الوسيط شمولية بحيث تأخذ بعين الاعتبار العالم من حولنا، نحلل تلك الأحداث ونرى أثرها على معطيات الأمور لدينا فكراً واقتصادياً واجتماعياً وعسكرياً. من هذا المنطلق كان اهتمامي بالثورات العديدة التي قامت في

العصر المملوكي في مصر وبلاد الشام ورفض المواطنين لهذه الدولة. فلماذا كان هذا الرفض الشديد وهذه الثورات العديدة الضارية، وما مقدار تأثيرنا بالأحداث العالمية من حولنا في نفس الفترة الزمنية؟ لذلك جاءت دراستي هذه لثورة كبيرة هامة أغفلها معظم الباحثين في تاريخنا الوسيط وهي ثورة الناصر أحمد بن محمد بن قلاوون، حاولت أن أعطيها بعداً جديداً من خلال الظروف والمتغيرات العالمية والدولية وتأثيرها في منطقتنا .

دراسة تحليلية لثورة الناصر أحمد بن محمد في الكرك

نشأ الناصر أحمد بن محمد بن قلاوون وتربى في الكرك من جنوب الشام، فلم يشعر بالغرابة عن البلاد كبقية المماليك، فعندما اعتلى السلطنة في القاهرة استعان بعدد من رجالات جنوب الشام في إدارة الدولة وقد رفض المماليك هذا الاجراء، فالعرب سكان البلاد الأصليون في مصر والشام لم يكن من حقهم تسلم أي منصب كبير في الدولة، فالمناصب العسكرية والسياسية كانت من اختصاص طبقة المماليك فقط . لذا رفض المماليك هذا الاجراء وضيقوا عليه ، فقرر نقل العاصمة من القاهرة الى الكرك ، وفعلاً نقلها وكانت مراسيمه تخرج من الكرك عاصمته الجديدة الى جميع أنحاء بلاد مصر والشام .

وهذا ما أثار عليه المماليك، فقرررو عزله، وعينوا سلطاناً مكانه، وجرّدوا إليه الجيوش وحاصروه في الكرك مدة سنتين كاملتين، وأرسلوا إليه ثمانية جيوش، فكلما تعب جيش أرسلوا غيره . ومما تجدر ملاحظته ان جيش الناصر أحمد استخدم في هذه الحرب سلاح (المدافع) وهذا ما ساعده على الصمود للحصار الطويل وإيقاع الخسائر في صفوف المهاجمين، وهي أول اشارة لاستخدام هذا السلاح في مصر والشام .

ومن خلال تحليلنا لأحداث هذه الثورة التي استمرت من سنة 743-745هـ (1342 - 1344م) ، نستطيع القول بأنها وقد انطلقت من مكان متحضر، وشارك فيها العرب المسلمون والناصرى على السواء، أول مظهر لانبعث الروح القومية العربية ضد السيطرة المملوكية الأجنبية التي رفضها العرب السكان الأصليون في مصر والشام .

وهناك خلاف في (بداية القومية) ، ففريق من الباحثين يعتبر ان الشعور القومي ظاهرة ملازمة للانسان منذ أن وجد المجتمع البشري، وان بعض سمات القومية قديمة قدم الانسانية نفسها. من هؤلاء (H. KOHN) الذي يرى أن التاريخ على مر العصور شهد بذور الشعور القومي في التمسك العميق من جانب الناس بأرضهم وتقاليدهم والسلطة القائمة في اقليمهم . وفريق آخر يرى ان القومية ظاهرة حديثة نسبياً ويختلف هؤلاء أيضاً في تاريخ بداية القومية في أوروبا، فمنهم من يرى ان المشاعر التي ظهرت في أواخر القرون الوسطى في الممالك التي توحدت في أوروبا أو كانت في طريقها الى الوحدة داخل حدود معينة هي البداية الحقيقية لظاهرة القومية. وآخرون يرون ان القومية بدأت تظهر قبل ذلك فد (تيري) مثلاً يرى أن الروح القومية الفرنسية ظهرت منذ القرن التاسع الميلادي، ولكن (لونجتون) يقول ان بداية اليقظة كانت في أوائل القرن الثاني عشر، أما (رانكة) فيؤكد انها ظهرت في القرن الثالث عشر بينما يرى (جيزو وميشيلية) انها ظهرت في القرنين الرابع عشر والخامس عشر .

وهناك اجماع بين الباحثين للفصل بين (ظواهر قومية) و (القومية) فهم يقولون ان (القومية الحديثة) ظهرت في عهد الثورة الفرنسية .

إذن أستطيع القول ان (مظاهر القومية العربية) ظهرت مبكراً في الثورات التي قامت في مصر والشام ضد الحكم المملوكي، أما (القومية العربية الحديثة) فظهرت في (الثورة العربية الكبرى) أي منذ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

كذلك فان القومية التي ترتبط بالدعوة الى قيام (الدولة القومية) ذات السيادة التي تخص أمة بعينها وتقسّم المجتمعات البشرية الى (جنسيات) مختلفة تسيطر كل منها على اقليم تمارس فيه سيادتها المطلقة. ما كانت لتنمو قبل أن تبدأ جماعات كبيرة من الناس في الاهتمام (بوطنها) أو (بلادها) أو (مجتمعها) ، واعتباره خاصاً بها لا يحق لغيرها ممارسة أية سيادة فيه. ولا شك ان هذا يتطلب قدراً معيناً من الاحاطة وسعة الافق، لا يتوفر لدى الناس عادة، إلا بانتشار التعليم الى جد ما. وقد كان التعليم حتى أواخر العصور الوسطى في أوروبا وقفاً في الغالب على رجال الدين المسيحي الذين يجنحون بطبيعة تفكيرهم ومحتوى عقيدتهم الى

(العالمية) في ظل السيادة الشاملة للدين، ولذلك لم تظهر البذور الأولى للقومية إلا بعد ذلك، فالقومية لم تكن من الممكن أن تنمو حتى تعلم الناس المشاركة في الحياة العامة .

ونستطيع القول اننا في منطقتنا العربية لم تكن في منأى عن الأحداث والتيارات الفكرية العالمية ، كنا على اتصال بالعالم فكرياً وثقافياً وسياسياً واقتصادياً. كانت منطقتنا في قلبه تتفاعل مع أحداثه وأفكاره وتياراته المختلفة تأخذ وتعطي . كان مجتمعنا مثقفاً متعلماً تطلع الى حقه في ممارسته في الحياة العامة ، والحياة السياسية الأخرى التي حرم منها في العصر المملوكي . فالعلماء (رجال الدين) لم يكن لهم تأثيرهم الذي كان في السابق والذين كانت نظرتهم مستمدة من الإسلام (وعالمية الدولة) ، لقد ضعف نفوذهم وتلاشى بسقوط (الخلافة العباسية) في بغداد على يد هولاكو سنة 656 هـ / شباط 1258 م .

اذن ظهرت البذور الأولى للقومية العربية في القرن الثالث عشر والرابع عشر، تماماً في نفس الفترة الزمنية التي ظهرت فيها في أوروبا. ففي هذه الفترة من العصر المملوكي ظهرت طبقة التجار الذين سمو (بياض العامة) ، وكانوا على درجة من الغنى بسبب نشاط الحركة التجارية المملوكية وشاركوا في الحياة السياسية في مصر والشام، بل قدموا العون الى بعض الثائرين على الدولة المملوكية من منطلق حسهم القومي . ثم ان ضعف نفوذ علماء وفقهاء المسلمين ، وانعدام السلطة الروحية الممثلة بالخلافة ووجود جنسيات مختلفة في الدولة نفسها تتمثل في الأتراك والجراكسة وغيرهم ، وصراعهم على السلطة ، حتى ان المؤرخ أبا المحاسن وصف هذا الصراع وأسبابه قائلاً : (والجنسية علة الضيم) . لكل هذا أخذ العرب المواطنون الأصليون في مصر والشام يفكرون في السلطة والمشاركة في الحياة العامة ، خصوصاً وانهم كانوا مؤهلين لذلك. فالمجتمعات العربية آنذاك بدأت ترنو الى حقها في السيطرة على (وطنها أو بلادها) ، واعتبار هذا الوطن خاصاً بها (لا يحق لغيرها ممارسة أية سيادة فيه) وذلك بسبب أن انساننا العربي كان آنذاك على درجة من الثقافة والعلم والاطلاع لانتشار المدارس في جميع أنحاء مصر وبلاد الشام. فكانت حلب ودمشق وبيت المقدس والقاهرة بؤر اشعاع فكري وحضاري في مصر وبلاد الشام ، وهذا مما ساعد على قدرة شعبنا وتطلعه الى ممارسة

حقوقه كاملة في وطنه، وعلى أرضه. وبذا بدأت تظهر لديهم المشاعر القومية أو (الجنسية) ، فأصبح الصراع والحالة هذه صراع الجنس التركي والجنس الجركسي ضد الجنس العربي، ومن هنا تولدت في هذه الحقبة التاريخية البذور الأولى لمظاهر القومية العربية .

ثم ان عدم نمو القومية العربية رغم التسليم بوجود كثير من عناصرها منذ عصر الخلفاء الراشدين والدولة الأموية والعباسية، هو وجود (الخلافة الإسلامية) بمفهومها العالمي الشمولي، باعتبار الخلافة تمثل السلطة الروحية والزمينية عند المسلمين، ويعتبر الخليفة رمزاً للمسلمين. وبانهيار الخلافة العباسية وتدمير بغداد، ضعفت شمولية الحكم الإسلامي العالمي، وبدأت تظهر اقلية سيطرت على البلاد في مصر والشام والعراق ، وتمكنت هذه من تجميع قوتها لأنها تمثل سلطة عسكرية وحربية قوية . وعندما شعرت بقدرتها على التحكم، انقضت على السلطة الشرعية ، فاسقطت الدولة الأيوبية سنة 648 هـ (1250 م) بعد أن قتلت آخر سلاطينها (توران شاه) وتحكمت في البلاد من منطلق أقليات جنسية . وقد سببت هذه الحالة ردة فعل لدى العرب وشعورهم بأن من حقهم المشاركة في الحكم وبأهليتهم لذلك ، خصوصاً وان الدولة المملوكية احتكرت كل المناصب الكبرى في الدولة ، وأبعدت كل العناصر العربية الوطنية من تقليد أي منصب عسكري أو اداري في مصر والشام، مما أثار سخط المواطنين .

ولم يكن بإمكان المواطنين الثورة في العاصمة لوجود الدولة المركزية فيها، وان كنا قد رأينا حركات ثورية عديدة قام بها سكان القاهرة وعرب الصعيد، ولكنها لم تكن منظمة فلم يكتب لها النجاح . أما ثورة الناصر أحمد بن محمد بن قلاوون فقد كانت ثورة منظمة ، لها قيادتها السياسية والعسكرية ، ولها أهدافها القومية ، ومن هنا ففي رأينا انها أول مظهر من مظاهر انبعاث الروح القومية العربية .

وقد يقول قائل بان الصراع لم يكن قومياً، فأقول : بأن الممالك كانوا ينظرون الى العرب نظرة استعلاء وبأنهم أقل منهم درجة ، فقد كانوا يشكلون الطبقة النبيلة الحاكمة ، وتتميز بأنها طبقة اقطاعية عسكرية ، استاثروا بالحكم وحياسة الاقطاعات الكبيرة . لم يندمجوا مع أهالي البلاد الأصليين فكانوا غرباء

عنهم، لا تربطهم بهم رابطة الدم أو الأصل أو الجنس. لذا لم يشعروا في كثير من الأحيان بروح التجاوب مع الأهالي، والعطف على مصالحهم، والعمل من أجل رفاهيتهم. لقد نظر المماليك الى بقية طبقات الشعب بنظرة أدنى فلم يسمحوا لهم بالمشاركة في الحياة العامة، وان سمح للبعض فبقدر معين محدد .

ولكن الناصر أحمد بن محمد بن قلاوون بحكم نشأته بعيداً عن قلعة الجبل بالقاهرة وتربيته في الكرك التي أحب أهلها وأصبح منهم فأبو المحاسن يقول : (فربي بالكرك وأحب أهلها وصارت له وطناً) ، لم يكن يحفل بنواميس المماليك وعاداتهم باعتبار انهم يشكلون طبقة اجتماعية ممتازة منعزلة عن الشعب هي الطبقة الحاكمة والمتحكمة ، التي تشغل كل المناصب الكبرى بالدولة . أما أصحاب البلاد الاصليون من العرب من مصريين وشاميين فلا حق لهم في تقلد هذه المناصب ، لذلك خرج الناصر أحمد على هذه التقاليد ، وكسر نواميس المماليك وعاداتهم، فاتخذ من أهالي جنوب الشام أعوانه وخواصه وقلدهم المناصب الكبرى في الدولة. فجعل الكركيان يوسف بن النصال وأبا بكر البارزدار من مقدمي الدولة وأخذ من أبي بكر حاجباً، واختص بهما .

ولم يعجب هذا الاجراء أمراء المماليك فاحتجوا على ذلك ، وأشاعوا انهما « حكما في الدولة وتكبرا على الناس » . ولم يكتف الناصر أحمد بذلك ، بل جعل من (الرضى) أحد نصارى الكرك كاتبه الخاص . وكان من المنطقي أن يرفض المماليك هذه السياسة وأن يثوروا على الأوضاع الجديدة التي تتيح ادخال العنصر العربي في الوظائف الكبرى في الدولة . وكانت في الأصل وقفاً على طبقة المماليك ، كما اعتبروه خطراً على الامتيازات التي يحتكرونها . وقد استهجن الأمراء المماليك تصرف الناصر أحمد هذا وبعثوه بأنه « يميل الى العوام » . والعوام بمفهوم ذلك العصر هم الشعب .

ثم اذا كانت حرب المائة عام (1337 - 1452م) بين فرنسا وبريطانيا، قد تميزت بروح معينة، سرت بين أكثر المواطنين في البلدين، وهو أقرب ما نسميه (بالروح الوطنية) التي تستثير نخوة الناس للدفاع عن اقليم معين، لم تكن حدوده واضحة بعد وتدفعهم للتضحية من أجله ، فلا شك ان هذه (الروح الوطنية) هي عنصر من العناصر التي تألف منها الشعور القومي في أوروبا وعلى هذا فان الروح

الوطنية التي استثارت نخوة أهالي الكرك خاصة وبلاد الشام عامة للتضحية والبذل والدفاع عن منطقتهم ووقوفهم الى جانب ثورتهم ببسالة وشجاعة مدة سنتين كاملتين، عانوا الكثير وقدموا الكثير، فلا شك ان هذا كله هو مظهر وعنصر من عناصر الشعور القومي في منطقتنا العربية. فتورة الناصر أحمد حدثت في نفس الفترة الزمنية التي كانت فيها حرب المائة عام والتي بدأت تظهر فيها هذه المشاعر القومية في أوروبا .

اذن أستطيع القول بأن (بدايات القومية العربية) زامنت سقوط الخلافة الإسلامية في بغداد، صحيح أن هناك ارهاصات قومية وصفت بأسماء مختلفة (كالشعبوية) أو اصلاحات بعض الخلفاء في الدولة الأموية (التعريب) ، أو بكتابات بعض الكتاب، أو في أشعار بعض الشعراء، ولكنها لم تأخذ طابع العنف السياسي والعسكري إلا بعد سقوط الخلافة العباسية . فقد قبلت الخلافة سيطرة بعض الاقليات في الدولة : كالفرس ، والترك ، والبويهيين ، والسلاجقة ، أما بعد سقوط الخلافة وانتفاء شمولية وعالمية الخلافة ، فلم يعد بالامكان قبول لتلك الاقليات بتسلم السلطة. فبدأت انتفاضات ثورية في مصر والشام لقيام الدولة المملوكية ، وقفت في وجه هذه الاقليات الجنسية القومية الغربية .

لا أدعي بأنني أتيت بجديد ، ولكنها مجرد وجهة نظر قابلة للمناقشة ، وعلى هذا النحو فاننا نرى ان هذه المشاعر القومية دفينية في ضمير انساننا العربي منذ القدم، وحتى في معركة اليرموك انحاز عرب الروم الى جانب العرب المسلمين فكان لهم النصر فلا غرو أن تكون دمشق وبغداد وعمان، والقاهرة، ومكة بؤرة ثورية في العصر الحديث، تقف بقوة وحزم الى جانب الثورة العربية الكبرى، التي تجسد آمال وطموح انساننا العربي في الخلاص من الأجنبي مهما كانت هويته، وسعيه الى وحدة أمته العربية، وبناء وطنه وتقدمه، والعمل على رفيعته وتحريره في دولة عربية واحدة .

خاتمة

يدعي بعض الباحثين الغربيين انتهاء القومية العربية خصوصاً بعد أحداث 1979م في العالم العربي، فهل حقيقة ان القومية العربية قد انتهت ؟؟ .

فإذا كانت القومية هي ضرب من العاطفة الاجتماعية التي تتبلور في الشعور بعاطفة روحية واحدة قد تنبثق عن الاشتراك في اللغة ، والأصل، والتراث الثقافي والمصالح المشتركة والخطر المشترك، فهذه العوامل تلعب دورها في بعث العاطفة القومية، تلك العاطفة التي تكفل بقاء الكيان القومي للأمة .

ومن هنا فإن إسرائيل والصهيونية والدول الغربية تحاول تحطيم هذه العاطفة القومية، كي تتمكن من تفتيت الكيان القومي للأمة العربية، وقد أدرك باحثوهم ذلك وعمل خبراءهم في هذا المجال ، لذا أصبح هناك تشكيك في جدوى العمل القومي، خصوصاً وأن أمتنا العربية منذ الحرب العالمية الأولى وهي تعاني من الهزائم المتلاحقة وفقدان أجزاء من ترابها ووطنها وزرع دولة إسرائيل في قلبها. وقد أدى هذا الى موت هذه العاطفة القومية وتبلد أحاسيس هذه الأمة، فلم يعد انساننا يهتم سوى بحياته وعمله الخاص ، لا يعنيه المجازر والمذابح والاعتداءات المتواصلة ، وحالة الذل والهوان التي وصلتها أمتنا العربية، وفي اعتقادي ان هذا حصيلة عمل متواصل وتخطيط مدروس . فالقومية في وجودها وأصلها شعور، والأمة نتاج هذا الشعور، لوفي المجتمعات القومية (كما يقول B. Russell) يكون بين الأفراد وبين الوحدة القومية التي نسميها وطناً أو (شعباً) نوع من الاتصال النفسي أو الروحي، وليس هذا الاتصال إلا ولاء يحسه الفرد نحو الجماعة التي يعيش فيها. وهذا ما يحاول أعداء أمتنا القضاء عليه، وهو نزع هذا الولاء للأمة العربية الواحدة وللوطن الواحد، وتكريس الاقليمية والاقليات المذهبية والطائفية، فتفتتت الأمة يعني تفتتت لقدراتها وقوتها من جميع النواحي العسكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية .

لذا فقد آن الأوان لكتابنا وباحثينا التركيز على الدراسات القومية ونشرها، والعمل على ابراز العلاقة الوشيحة بين الإسلام والعروبة فالإسلام قضى على الوجود القبلي للعرب، وحقق كيانهم القومي، ووحدتهم سياسياً واقتصادياً واجتماعياً ولغوياً، وكان انتشار العروبة مواكباً لانتشار الإسلام. فمفهوم العروبة في العصور الوسطى كان ملحقاً بالمفهوم الديني أي الإسلام، ولم يكن للعروبة كيان منفصل عن الإسلام، وعلى هذا فعلياً المزج بين القومية والإسلام لأن كلا منهما مكمل للآخر ولا يجوز الفصل بين العروبة والإسلام . وأعتقد ان الظروف

ملائمة في وقتنا الحاضر لنشر مثل هذه الدراسات والأفكار خصوصاً وإن أمتنا وصلت الى حالة من اليأس والتفكك لا مثيل لها .

وهكذا أردت في دراستي هذه أن أتطرق الى موضوع هام يتعلق ببدايات القومية العربية، فباعترادي ان هذه البدايات تمثلت في الثورات التي قامت في العصر المملوكي وبالأخص ثورة الناصر أحمد بن محمد بن قلاوون، ورفض العرب للأقليات المملوكية الحاكمة حتى ولو كانت مسلمة، خصوصاً بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد. فالصراع آنذاك كان صراعاً جنسياً أو (قومياً) بين القومية العربية والقوميات الأخرى التي دخلت مجتمعنا عن طريق الرق واستأثرت بالسلطة والاقطاعات وجارت وتحكمت في البلاد والعباد . لذا فلسنت مع الباحثين الذين يقولون ان (القومية العربية) لم تظهر في بلادنا إلا في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر وانها كانت مستوردة من أوروبا. فانسانا لم يكن مجرداً من عواطفه القومية، ولم يكن في منأى عن كل التيارات الفكرية في العالم، فاذا كان هناك قبول للأقليات الجنسية في مجتمعاتنا العربية فمرد ذلك للخلافة الإسلامية التي تعني الشمولية، ولكن بسقوطها زالت هذه الشمولية وأصبح الانسان العربي يرنو الى المشاركة في الحياة العامة وحكم نفسه، وهذا ما حدث في ثورة الناصر أحمد بن محمد بن قلاوون وردة الفعل الجامحة من الممالك ضدها . فكل الثورات التي حدثت في العصر المملوكي دخل فيها عنصر المفاوضات إلا هذه الثورة، رفض الممالك المهادنة والمفاوضة وأصروا على القضاء عليها وقتل قائدها وهم بذلك يودون القضاء على كل المشاعر القومية العربية التي من الممكن أن تظهر مستقبلاً. وقد تميزت هذه الثورة بوقوف أهالي بلاد الشام الى جانب ثورتهم ومقدار تضحياتهم ومعاناتهم، فلو لم يكن هؤلاء مؤمنين بمبدأ وفكرة معينة فلماذا المعاناة وكل هذه التضحيات؟ .

3/3 / 1997 م



الكرك والكركيون وأهلنا في جنوب الأردن وباديتها روية تاريخية

طالعت بعد الأحداث المؤسفة الأخيرة ما كتب عن الكرك والكركيين وأهالي الجنوب بعامة في صفحاتنا المحلية يومية وأسبوعية ، اتسم بعضها بعدم الموضوعية، والهجوم غير المبرر ، والبعض كان رده من منطلق عاطفي دافع عن أهله وعشيرته بأسلوب صحفي . وكمؤرخ فلنني أود في هذه العجالة أن أوضح أموراً يجهلها الكثيرون عن الكرك وجنوب الأردن. فان أردنا تفسير الأحداث فلا بد لنا دوماً من العودة الى الظروف المحيطة بالحدث ، والزمان والمكان ، وربط الحدث بالجغرافيا . فلا يمكن فصل التاريخ عن الجغرافيا . إن تاريخ الجنوب مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالموقع الجغرافي والذي كان سبباً رئيسياً في صياغة أحداثه التاريخية، تلك الأحداث التي تؤثر بالانسان وتنعكس على سلوكه وتصرفاته . فالانسان في حاضره ومستقبله هو جزء من ماضيه ، وما الحاضر الذي نعيشه إلا نتاج لما تم من تفاعلات وانجازات حضارية حدثت في الماضي ، فالبشر يعيشون تراثهم في حاضرمهم ، ثم ان تراث الجماعة البشرية في مجتمع ما يترك بصماته على عادات وسلوك هذا المجتمع في حاضره ومستقبله. وهذا ما أريد أن أوضحه ، لذلك علينا دوماً معرفة تاريخ كل منطقة وما جرى فيها من أحداث أثرت سلباً أو ايجاباً على سكانها ومواطنيها. فارتباط الانسان بالتاريخ لم يكن في يوم من الأيام قاصراً على لماضي وحده بل هو ارتباط يمتد من الماضي ويعيش في الحاضر ، ويستشرف آفاق المستقبل . ومن هنا فان أهالي الجنوب لهم ارتباط وثيق بتاريخهم القديم والوسيط والحديث ، وهذا ما ينعكس على تصرفاتهم في حياتهم المعاصرة . وكذلك على مستوى فردي فعندما نريد معرفة شخص ما ونتأكد منه نسأل عن مؤهلاته ثم عن أهله وعائلته وخبرته وتجاربه (سيرة حياته) ، لان معرفة ذلك يدل على

الكثير من صفات هذا الشخص، وهنا أريد التعريف بالكرك والجنوبيين ، لأن كثيراً من الصفات متوارثة جيلاً بعد جيل

لقد قامت في جنوب الأردن حضارات عديدة موهلة في القدم ، وقد دلت الكشوف الأثرية أن الانسان في هذه الأجزاء أسس دولاً قوية، وأبدع حضارات راقية متقدمة ، نذكر : الأدوميين والمؤابيين ثم الأنباط . وما زالت أوابدهم موجودة للآن، نفخر بها ونفاخر بها العالم ، وأصبحت مِحْجاً للملايين السائحين من أصقاع مختلفة في العالم . فبالانسان في هذه الأجزاء كان متحضراً في مفهوم تلك العصور ، وعلى علاقات جيدة مع جيرانه، تاجر نشيط، وبحار مغامر، ركبوا البحر الأحمر، وتاجروا مع الشرق الأقصى ، ونقلوا السلع الى سواحل البحر المتوسط حيث أوروبا، وجنوا من ذلك الأموال الطائلة. كان ذلك في العصر الاغريقي والروماني ثم البيزنطي، وعندما ظهرت الديانة المسيحية اعتنقوا الديانة الجديدة، وبنوا الكنائس والكاتدرائيات وكان لهم ممثلوهم في المجامع الكنسية المتعددة. كانوا عرباً، تحدثوا العربية وكتبوا بالأرامية وتعلموا اليونانية واللاتينية . وكانوا محاربين أشداء والتاريخ يحدثنا عنهم وعن شجاعتهم وإقدامهم وتضحياتهم وخصوصاً ضد العبرانيين، والذي يقرأ التوراة يجد العديد من نصوصه تشتم المؤابيين والعمونيين لأنهم هزموا العبرانيين وانتصروا عليهم ...

أما القبائل التي سكنت الجنوب فكانت قبائل عربية نذكر منهم ، لخم ، وجذام، وقضاعة ، وعذرة ، وبلقين، وبهراء ، وبلى ، وغسان ، وكانوا على اتصال مباشر بعرب الحجاز والجزيرة العربية. وعندما ظهر الإسلام في الحجاز على يد الرسول العربي الهاشمي محمد (ﷺ) ، كان لعرب جنوب الأردن اتصالات سرية مع النبي محمد (ﷺ) ، ودخل بعضهم في الإسلام سرراً وخوفاً من البيزنطيين الذين كانوا يسيطرون على كل بلاد الشام . وممن قدموا الى الرسول (ﷺ) بعد هدنة الحديبية سنة 6 هـ / 627 م نذكر : رفاعة بن زيد الجذامي، فأسلم وحسن إسلامه، وبعد أن أقام في المدينة أياماً ، عاد الى قومه ، وقبل عودته سأل النبي (ﷺ) أن يكتب معه كتاباً الى قومه، فكتب له رسول الله الى قومه كتاباً هذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد رسول الله لرفاعة بن زيد، إني بعثته الى قومه عامة ومن دخل فيهم، يدعوهم الى الله والى رسوله، فمن اقبل فمن حزب الله وحزب رسوله، ومن ادبر فله امان شهرين .

ومن الذين أسلموا كذلك فروة بن عمرو النافرة الجذامي وكان حاكماً على العرب في منطقة جنوب الأردن، وكان مقره مدينة (معان) ، وقد أرسل فروة الى الرسول (ﷺ) رسالة هذا نصها :

لمحمد رسول الله

إني مقر بالإسلام مصدق به ، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، أنت الذي بشر بك عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام .

وعندما علم البيزنطيون بإسلامه، ألقوا القبض عليه وحبسوه ، وطلبوا منه أن يرتد عن دينه الجديد ، فرفض ، عندئذ أخذوه الى عين ماء يقال لها عفرا (قرب الطفيلة) ، فضربوا عنقه وصلبوه قرب ذلك الماء سنة 10 هـ / 631 م ، فقتل شهيداً ، فكان فروة أول شهيد شامي في الإسلام ، وكانت مدينة معان أول مدينة شامية دخل إليها الإسلام على يد حاكمها فروة .

كانت القبائل العربية في جنوب الأردن تترجح تحت حكم بيزنطي جائر، وعندما أرسى الإسلام جذوره في الجزيرة العربية، كان لا بد لهذه الرسالة من الانتشار وايصالها للعالم الخارجي، فهي دين الناس كافة. ثم إن الخروج بها من نطاق الحجاز الى العالم من حولهم لا بد وأن يكون عن طريق الشام (مشارف الشام) حيث الدولة البيزنطية، فكانت غزوة مؤتة سنة 8 هـ / 629 م ، وقد حدد الرسول (ﷺ) استراتيجية الفتوحات الشامية في الكلمة التي وجهها الى جيش مؤتة حين قال :

اغزوا باسم الله، فقاتلوا عدوكم بالشام، وادعوا المشركين الى إحدى ثلاث، فايتهن ما اجابوك اليها فاقبل منهم، واكف عنهم، ادعهم الى الدخول في الإسلام، فان فعلوا فاقبل منهم واكف عنهم، ثم

ادعهم الى التحول من دارهم الى دار المهاجرين، فان فعلوا فاخبرهم ان لهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين . وان دخلوا الإسلام واختراروا دارهم فاخبرهم انهم يكونون كاعراب المسلمين ، ولا يكون لهم في الفيء ولا في القسمة شيء . إلا ان يجاهدوا مع المسلمين . فإن ابوا فادعهم الى اعطاء الجزية ، فان فعلوا فاقبل منهم واكف عنهم ، فإن ابوا فاستعن الله وقتلهم .

واستشهد في مؤتة القادة الثلاثة : زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبي طالب ، وعبد الله بن رواحة ، وما زالت مقاماتهم في بلدة المزار الأردنية ، عنواناً للتضحية والفداء في سبيل العقيدة والمبدأ . وكانت مؤتة ضرورة لتثبيت دولة الرسول (ﷺ) دعائمها وتركز جذورها ، لا في الحجاز فحسب ، بل في الجزيرة العربية ، ولدى المستعربة من سكان بلاد الشام وفارس .

ثم إن الرسول (ﷺ) سار في سنة 9 هـ / 630م الى تبوك يقود قوات المسلمين بنفسه كي يؤكد للمسلمين أن البيزنطيين ليسوا أشد بأساً منهم، ولا أكثر قوة وأصبر على القتال، وحتى يقضي على عقدة الخوف والفرع والرهبنة من هذه الدولة العملاقة التي هزمت المسلمين في مؤتة .

وأثناء إقامته في تبوك قدم إليه (يحنه بن رؤبة الغسّاني) أسقف أيلة (العقبة) ، فمنحه الرسول (ﷺ) الأمان وأعطاه كتاباً هذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه امانة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنه بن رؤبة وأهل أيلة سفنهم وسيارتهم في البر والبحر، لهم ذمة الله، وذمة محمد رسول الله ولئن كان معهم من أهل الشام، وأهل اليمن، وأهل البحر، فمن أحدث حدثاً، فإنه لا يحول مال دون نفسه، وأنه طيبة لمن أخذه من الناس، وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه، ولا طريقاً يردونه من بر وبحر .

وأثناء إقامة الرسول (ﷺ) في تبوك قدم إليه أهل أذرح وجرباء من جنوب

الأردن فمنحهم الأمان وسلم لهم كتباً بذلك. وهكذا مهد الرسول (ﷺ) للفتوح العربية الإسلامية ، بأن توجه إلى أهالي البلاد العرب من سكان جنوب الأردن ، وأصبحت هذه المنطقة بوابة الفتح ونقطة الانطلاق إلى الشام كله ومن ثم إلى مصر والشمال الأفريقي فمنها وعليها سارت جيوش الصحابة الأجلاء : أبو عبيدة عامر ابن الجراح ، وعمرو بن العاص ، وشرحبيل بن حسنة ، ويزيد بن أبي سفيان. وفي أرض الأردن يرقد قادة الفتح في جنوب البلاد وشمالها (غور الأردن) .

وبعد انتشار الإسلام في ربوع الديار الشامية ، أصبحت أيلة (العقبة) مركزاً من مراكز العلم ، ونيغ من أهلها العديدون في علوم الحديث والفقه والقراءات . وتكونت منهم أسر علمية عريقة، هاجر بعضها إلى مصر ووضعوا الأسس الأولى لعلم الحديث فيها ، وبقي الآخرون في أيلة (العقبة) يقصدهم طلاب العلم . واقتربت أيلة (العقبة) بالإمام الكبير أمام أهل المدينة محمد بن مسلم بن شهاب الزهري ، الذي أحب أيلة وعلماءها ، وكانت له ضيعة فيها . ومن العائلات العلمية في أيلة (العقبة) نذكر: عائلة يونس الأيلي، وعائلة عبد الحكيم الأيلي وعائلة عقيل الأيلي .

وبقيت منطقة جنوب الأردن لها أهميتها الخاصة في العصور الإسلامية المتلاحقة ، ففي أذرح حصل التحكيم ، ومن الحميمة خرجت أول حركة سرية في الإسلام ، وهي الدعوة العباسية التي أطاحت فيما بعد بالدولة الأموية. وتعرضت منطقة جنوب الأردن إلى الاحتلال الفرنسي ، فاحتلوا الشوبك ثم أيلة والكرك وأسسوا بارونية الكرك والشوبك وظلت منطقة جنوب الأردن تحت الاحتلال الفرنسي منذ سنة 509 هـ / 1115 م إلى 585 هـ / 1189 م عندما حررها صلاح الدين الأيوبي ، وأعاد الكرك إلى الحكم العربي الإسلامي ، وأزال المظاهر الفرنجية منها . وفي العصر الأيوبي أسست إمارة الكرك الأيوبية سنة 626 هـ / 1229 م ، بقيادة الملك الناصر داود بن المعظم عيسى ، وقد امتد نفوذ هذه الإمارة إلى كل منطقة شرقي الأردن والضفة الغربية (نابلس ، الخليل وأعمال القدس) . وقد أقام الملك الناصر داود الأسس الأولى لنهضة علمية قوية، ازدهرت وأتت أكلها في العصر المملوكي .

ومما تجدر ملاحظته ومعرفته أن هذه الإمارة كان لها جيشها القوي، وقد تمكن هذا الجيش من تحرير بيت المقدس من الفرنج سنة 637 هـ / 1239 م بقيادة

الملك الناصر داود أميرها . وكانت القدس قد سلمت للفرنج من قبل الملك الكامل محمد صاحب مصر في الحملة الفرنجية السادسة 626 هـ / 1229 م .

وعندما تسلم الملك الظاهر بيبرس السلطة في مصر وأصبح سلطاناً للدولة المملوكية ، كانت الكرك تحت حكم الملك المغيث عمر بن العادل الأيوبي ، وقد عمل الظاهر بيبرس على ضم الكرك الى سلطنته، وتمكن من ذلك بعد أن ألقى القبض على أميرها بالحيلة ، ثم تقدم الى الكرك وحاصرها . فاضطر أهالي الكرك الى تسليمه مفاتيح المدينة والقلعة ، فصعد إليها وتسلمها منهم . ثم اجتمع بأهالي الكرك ووزع عليهم الاقطاعات والمكافآت وقال لهم : إنكم لم تتغيروا ولم تخونوا أميركم وبقيتم على ولائكم له ، لذا فقد إزددتهم محبة عندي. وقد لعبت الكرك في العصر المملوكي دوراً هاماً ومتميزاً من النواحي العسكرية والاستراتيجية والاقتصادية والثقافية . وكانت إحدى البؤر الثورية في ذلك العصر ضد الحكم المملوكي الذي اعتبره العرب من سكان مصر وبلاد الشام حكماً غريباً عنهم ، لذا قاوموه وانتهزوا الفرص للثورة عليه .

ولاهمية الكرك الاستراتيجية والعسكرية ، فقد جعلها السلاطين المماليك مخزناً وملجأً ، مخزناً لأموالهم ، وملجأً لهم عندما يشعرون بخطر في القاهرة يلجأون الى الكرك للاحتماء خلف أسوارها ويحتمون بأهلها. وهذا ما فعله الناصر محمد بن قلاوون، ثم أن الناصر أحمد بن محمد بن قلاوون الذي تربى في الكرك ، عندما أصبح ، سلطاناً في القاهرة ، جمع حوله وفي حاشيته مجموعة من الكركيين الموالين المخلصين له ، وقد رفض أمراء المماليك وجودهم في القاهرة وقاوموهم وضيقوا عليهم وعلى السلطان نفسه . لأنهم قاوموا وجود عناصر عربية شامية حول السلطان . فما كان من الناصر أحمد إلا أن نقل العاصمة من القاهرة الى الكرك فترك القاهرة وتوجه الى الكرك ودخلها في 9 ذي الحجة 742 هـ / 17 أيار 1341 م ، وصارت مراسيمه تخرج من الكرك الى جميع أنحاء مملكته في مصر وبلاد الشام .

رفض الأمراء المماليك في القاهرة نقل العاصمة الى الكرك، وقرروا عزل الملك الناصر أحمد، ثم جردوا الجيوش لمحاصرته، ودامت محاصرتهم للكرك مدة سنتين كاملتين ليل ونهار، فكلما تعب جيش أرسلوا آخر حتى إنه لم يبق أمير أو جندي في

الجيش المملوكي إلا وشارك مرة أو مرتين في حصار الكرك، ولكنهم لم يستطيعوا دخول المدينة بسبب حصانتها ومنعتها فقد شُبهت (بعش الغراب) وكانت كالجزيرة محاطة بالأودية السحيقة التي يصعب على الجيوش ارتقاؤها أو الوصول إليها . وأخيراً تمكنت القوات المملوكية من دخول المدينة والقلعة بعد أن قلت الأغذية لدى سكانها ، وأصبحوا في حالة سيئة ، ففتحو أبواب المدينة بعد أن ضمنوا الأمن والأمان لسكانها . فدخلت القوات المملوكية القلعة وألقت القبض على الناصر أحمد بعد أن دافع دفاعاً مستميتاً فقتلوه وأنهوا ثورته في الكرك. وقد وقف أهالي الكرك والقبائل العربية في الجنوب الى جانب سلطانهم ، وحاربوا وبذلوا كل غال ورخيص حتى لم يبق لديهم شيء ، وهذا دليل وفائهم لقائدهم وإخلاصهم له وإيمانهم بعدالة القضية التي يحاربون من أجلها .

لم يكن الكركيون محاربين أشداء فقط، بل كانت لديهم نهضة علمية ممتازة، فنبغ منهم العلماء والفقهاء والشعراء والأدباء والأطباء ، وإن كتب التراجم تزخر بأعداد كبيرة من الكركيين والمناطق المجاورة . وخدم هؤلاء العلماء في أمهات المدن المصرية والشامية : كالقاهرة ودمشق وحلب وبيت المقدس ، وكان لهم أثرهم في الحركة العلمية والثقافية في العصر المملوكي . وظلت دروب جنوب الأردن تخدم حركة التجارة الدولية وقوافل الحج الشامي والمصري قروناً عديدة ، وقد وصف المؤرخون أسواق العقبة آنذاك فقالوا :

وفيها سوق لا يكاد أن يحصى ما فيها من أنواع البزّ والثياب والأمتعة والأطعمة، وأنواع المأكّل والمشارب، والمحامل والأكوار والرحال، والسلاح وغيره من أبزاز منوعة الأجناس ومفترقة الأجناس ... والعقبة بأسواقه المتشعبة بندر عظيم يكاد أن يكون في أسواقه مثل المدينة، فهو يشبهها في الارتفاق به والاستعداد منه للزاد، وفيه ما تشتهيهِ الأنفُس وتلذّ الأبصار ...

وبعد سقوط الدولة المملوكية دخلت بلاد الشام تحت حكم الدولة العثمانية سنة 1516م ، وأثناء الحكم العثماني تمكن والي مصر محمد علي باشا من بسط نفوذه على بلاد الشام بقيادة ابنه إبراهيم باشا، وظلت تحت حكمه من سنة 1831

الى 1840م فاضطر الى الانسحاب منها بعد تدخل الدول الأوروبية مانعين أي وحدة أو اتحاد بين مصر وبلاد الشام. ولم يتمكن إبراهيم باشا من بسط سيطرته ونفوذه التام على منطقة شرقي الأردن، فقامت الثورات في نواحي عجلون والسلط والكرك، ورفضوا دفع الضرائب لعمال إبراهيم باشا، فاضطر لقتالهم وقتل عدداً منهم. وفي عام 1905م حدث تمرد في الشوبك ضد القوات العثمانية وتمكن أهالي الشوبك من طرد الحامية العثمانية في قلعة الشوبك . وفي عام 1910م حاولت الدولة العثمانية تطبيق قانون الخدمة العسكرية الاجبارية وجمع السلاح من الأهلين وتسجيل الأملاك والأراضي، فرفض أهالي الكرك الانصياع لأوامر الحكومة العثمانية، فقرروا الثورة على السلطة العثمانية فهاجموا المفازر العسكرية وتمكنوا من السيطرة على مبنى المتصرفية والمكاتب الرسمية ، وأحرقوا الأوراق والسجلات الرسمية ومن ثم طوقوا قوات الحامية العثمانية في القلعة . وامتدت الثورة الى المناطق المجاورة معان والطفيلة والشوبك والشراه ووادي موسى ولكن السلطة المركزية أرسلت حملة عسكرية قوية لتهدئة الأحوال والسيطرة على الأمن، فتمكنوا من القضاء على هذه الثورة، وألقوا القبض على عدد من أهالي الكرك ومنطقتها فاعدم بعضهم في دمشق وآخرون في الكرك، بالإضافة الى سجن ونفي آخرين .

انطلقت الثورة العربية بقيادة الشريف حسين بن علي من مكة في 10 حزيران عام 1916م ، وتمكنت قوات الثورة العربية من التقدم شمالاً بقيادة الأمير فيصل بن الحسين ، فاستولى على الوجه على ساحل البحر الأحمر عام 1917م ، ومن هناك أرسل يطلب العون والمساعدة من زعماء القبائل العربية في منطقة جنوب الأردن . لم يتوان الأردنيون عن تلبية النداء فانضموا الى صفوف قوات الثورة العربية . وكان شيوخ الحويطات وبني صخر وشيوخ الكرك وأهالي السلط والبلقاء وعجلون وحوران سابقين في الانضمام الى قوات الثورة فحققت القوات أهدافها ووصلت الى دمشق عام 1918م .

لقد لبى أهالي الكرك نداء الواجب واتصل عدد من زعمائهم بالأمير فيصل، ولكن الأتراك ألقوا القبض على عدد من أهالي البلاد وأعيانها مسلمين ومسيحيين وأرسلوهم الى سجن دمشق، والبعض نفوا الى ولاية أضنة. ولما قدم الأمير عبد الله ابن الحسين الى معان في 12 تشرين ثاني 1920م استقبله أهالي معان وبأديتها

والمناطق الجنوبية بكل محبة وحماسة ، وتنادى زعماء البلاد الى مساعدته والوقوف الى جانبه، وكان لزعماء الكرك والقبائل العربية دورهم في وضع الأسس الأولى لإمارة شرقي الأردن بزعامة الأمير ثم الملك المؤسس عبد الله بن الحسين وما زالوا

وهكذا فلكي نفهم أي شخص أو أفراد لا بد من الإلمام بخلفيتهم ، ومعرفة تاريخهم وطبائعهم وعاداتهم ، كي يسهل التعامل معهم . فالركيون رجال أشداء وسموا بالشجاعة والتضحية والإخلاص لبلدهم وقادتهم ، عرفوا بالوفاء والثبات في أوقات الشدة. لم يعرفوا الجبن والخوف ولم يخذلوا قادتهم وزعماءهم، يعتزون بكرامتهم لا يقبلون الذل والهوان ، يميلون الى الاستقلالية ولا يقبلون الظلم والعسف والجور . يفخرون بانتماثهم العروبي منذ أقدم العصور ، فوقفوا الى جانب سلطانهم الملك الناصر أحمد بن محمد بن قلاوون وتحملوا المشاق والحصار الطويل مدة سنتين كاملتين من منطلق انتمائهم العربي ، لأن الناصر أحمد تربى في الكرك وكان يعتز بانتمائه إليها ، فتورته هذه تعتبر مظهراً من مظاهر اعتزازهم القومي . لقد ثاروا ضد السيطرة المملوكية التي اعتبروها سلطة غريبة عنهم، كانوا عرباً أحراراً وفضلوا الحكم العربي على الحكم المملوكي . ثم رفضوا السلطة العثمانية وثاروا عليها، من منطلق حسهم القومي العروبي، اعتزوا بعروبيتهم دوماً ورفضوا الحكم العثماني غير العربي .

ولن ننسى قبل ذلك ما قام به الركيون من تحرير بيت المقدس من الفرنج بقيادة ملكهم الناصر داود، ومن ثم اعتزازهم بمدينتهم التي أصبحت في العصر المملوكي عاصمة لمصر وبلاد الشام . ثم كانت قبل ذلك عاصمة لامارة الكرك الأيوبية .

فالركيون هم أحفاد أولئك الرجال الذين سطوروا بتضحياتهم صفحات مشرقة من تاريخ أمتنا العربية في بلاد الشام منذ أقدم العصور حتى الوقت الحاضر. ومن هنا فان علينا إن أردنا التعامل مع هؤلاء الأحفاد أن نعرف شيئاً عن تاريخ أجدادهم وماذا قدموا لأمتهم. إنها صفحات ناصعة ماجدة، وهذا ما انعكس على أهالي الكرك والجنوب بعامة ، فهم البناة الأوفياء الأشداء . مخلصون منتمون لوطنهم وبلدهم وأمتهم العربية العظيمة . ساهموا ويساهمون في بناء وطنهم، ما

عرفوا الإقليمية والطائفية والجهوية، بل كانوا وما زالوا العرب العرب، الرجال
الرجال، الأصدقاء الأقياء ، الباذلين الأرواح في سبيل العقيدة والمبدأ والأمة الواحدة
العظيمة، من منطلق انتمائهم القومي العربي وعقيدتهم السماوية السمحة
المتسامحة

19/9/1996 م



الديموغرافية وعناصر السكان في مدينة القدس في العصر الإسلامي الوجود اليهودي كان محدوداً لمنات السنين

تدل الدراسات الديمغرافية أن سكان بيت المقدس بلغ في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) 20ر000 نسمة ، ثم ارتفع هذا العدد في القرن السادس الهجري (الثاني والثالث عشر الميلادي) فبلغ 30ر000 نسمة . وبلغت مساحة المدينة المقدسة 720 دونماً ، فكثافتها السكانية إذن 42 شخصاً للدونم الواحد. ومن الملاحظ أن الكثافة السكانية في بيت المقدس كانت في المرتبة الثانية بين المدن الفلسطينية بعد عكا، التي بلغت كثافتها السكانية 50 شخصاً للدونم الواحد . وبلغ عدد السكان في المدينة المقدسة أوجه في القرن السابع والثامن الهجري (الثالث والرابع عشر الميلادي) ، فبلغ سكان المدينة المقدسة آنذاك 40ر000 نسمة، فكثافتها السكانية كانت 56 شخصاً للدونم الواحد ، وهي أعلى كثافة سكانية وصلتها المدينة المقدسة في العصور الوسطى .

ثم أخذت الكثافة السكانية في التدني، فبلغ سكانها في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) 16ر000 نسمة ، ثم تدنى الى النصف ، فبلغ في منتصف القرن التاسع الهجري (15م) 8ر000 نسمة ، ثم أصبح في أوائل القرن العاشر الهجري (16م) 3ر000 نسمة . ثم أخذ في الصعود ، ففي منتصف القرن 16 بلغ 8ر000 نسمة، ثم أخذ في الهبوط مرة أخرى، ولكن سرعان ما عاد للارتفاع ثانية في العصر العثماني . ولم تكن الكثافة السكانية في المدن الفلسطينية عالية في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) ، فقد كانت على النحو التالي : صفد 12ر000 نسمة ، القدس 8000 نسمة ، غزة 6000 نسمة ، نابلس 4300 نسمة ، الخليل 3500 نسمة، كفر كنا 2850 نسمة، مجدل 2800 ، اللد 2500 نسمة .

وقد حدث تخلخل في الكثافة السكانية في فلسطين أثناء الغزوة الصليبية على

بلاد الشام ، فهجرت السكان المدن الساحلية ، أما المدن الداخلية فهجرتها بعض سكانها . ومع ذلك بقيت مأهولة بالعرب الوطنيين . وهذا التخلخل حدث في الرملة وبيسان والخليل ، أما بيت المقدس ففقد الكثير من سكانه نتيجة للغزوة الصليبية ، فالمصادر اللاتينية تذكر أن الفرنجة قتلوا في المدينة المقدسة عشرين ألفاً ، بينما قدرت المصادر الإسلامية العدد بسبعين ألفاً . ولم يسمحوا بادىء الأمر لغير النصارى بسكنى المدينة المقدسة ، فأصبحت المدينة خالية من السكان ، إذ أن الموجودين فيها لم يملأوا شارعاً واحداً من شوارعها .

وإزداد سكان بيت المقدس في العصر الأيوبي ، ولكن الزيادة بلغت أقصاها في العصر المملوكي ، فقد استقبلت المدينة المقدسة أعداداً من المهاجرين ، من العراق والبلدان الشرقية الذين تركوا بلادهم أمام الضغط التتاري ، فلادوا بمدن الشام : حلب وحماه ودمشق والقدس الذي استأثر بالعديد من هؤلاء المهاجرين . كما أن الاستقرار والهدوء الذي نعمت به المدينة المقدسة كغيرها من مدن بلاد الشام جعلها تنعم بدرجة من الثروة والازدهار والأمن . ثم للأهمية الخاصة التي أولاها إياها السلاطين المماليك ، زادها نمواً وعمراً ، فانعكس ذلك على كثافتها السكانية فبلغ سكان القدس 40ر000 نسمة ، وهو أعلى رقم وصلته في تاريخها الوسيط .

ولكن الكثافة السكانية أخذت في الهبوط منذ منتصف القرن الثامن الهجري (النصف الثاني في من القرن الرابع عشر الميلادي) ، فقد أصاب بلاد الشام بل العالم كله ما عرف في المصادر القديمة بالفناء العظيم (الطاعون) ، وأفى هذا الطاعون أعداداً كبيرة من بلاد الشام ، وبادت مدن بأكملها مثل اللد والرملة وجنين . فالنمو السكاني في النصف الثاني من القرن الرابع عشر اقترب من التوقف ، ليس في بلاد الشام ومصر فحسب ، بل في العالم كله . وقد شاهد ابن بطوطة ما فعله الوباء في مدن بلاد الشام ، كدمشق التي كانت تفقد يومياً ألفي شخص ، أما غزة ففقدت معظم سكانها . وتسبب الوباء في موت أعداد كبيرة من سكان بيت المقدس ، ومنذ ذلك الحين أخذت الكثافة السكانية في بيت المقدس في تدني ، حتى بلغت أشدها في أوائل القرن العاشر الهجري (أوائل القرن السادس عشر الميلادي) .

ومما ساعد على تخلخل الكثافة السكانية في فلسطين خاصة وبلاد الشام عامة الحروب والقحط والجفاف التي ضربت المنطقة في أوائل القرن التاسع

الهجري (الخامس عشر الميلادي) . فالمقريري يذكر أن تيمورلنك خرب بلاد الشام ومدنها وقتل من أهلها ما لا يحصى عدده (بحيث أقامت القدس مدة إذا أقيمت صلاة الظهر بالمسجد الأقصى لا يصلي خلف الإمام سوى رجلين) . ويذكر المقريري أيضاً في سنة 825 هـ (1421م) ، إن القحط والجذب أصاب حوران والكرك والقدس والرملة وغزة لعدم نزول المطر ، ونتج عن ذلك نزوح كثير من سكان هذه البلاد عن أوطانهم .

ومنذ عام 833 هـ (1429م) عاد الطاعون مرة أخرى للمنطقة فأصاب غزة والقدس والرملة وصفد ودمشق ، وحمص وحماة وحلب ، وهلك فيه خلائق لا يحصى عددها . ويقول المقريري في حوادث هذه السنة ، ان الوباء والنزلات فتكت بالناس إذ كانت (تنحدر من الدماغ الى الصدر فيموت الانسان في أقل من ساعة بغير تقدم مرض ، وكان أكثر هذا في الأطفال والشباب) ولعل هذا الوباء الذي وصفه المقريري هو نوع من أنواع الحميات القوية التي كانت تفتك بالناس بهذا الشكل الخطير. ثم عاد الوباء مرة أخرى فضرب المنطقة في سنة 841 هـ (1437م) فمات من جرائه خلق كثير، في دمشق وغزة والرملة والأغوار .

وهكذا نرى أن بيت المقدس نتيجة للطاعون الذي أصاب المنطقة والعالم كله في منتصف القرن الثامن الهجري (منتصف الرابع عشر الميلادي) ، فقد نصف سكانه ، أي ما يقارب 20ر000 نسمة ، ثم أخذت الديموغرافية تتدنى في بيت المقدس وفلسطين نتيجة للغزوة التتارية المدمرة بقيادة تيمورلنك سنة 803 هـ (1400م) وزاد في تدهورها القحط والجفاف الذي أصاب المدينة المقدسة والمناطق المجاورة سنة 825 هـ (1421م) بحيث هجرها الكثير من سكانها . أضف الى ذلك الطاعون والوباء (الحمى) التي داهمت القدس والعديد من المدن الشامية سنة 833 هـ (1429م) ، و 841 هـ (1437م) أدى الى هلاك خلائق لا يحصى عددها . ونتيجة لذلك فقد القدس نصف سكانه ، فأصبح عدد السكان في منتصف القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) 8000 نسمة . وفي أواخر القرن التاسع الهجري أصاب الطاعون بيت المقدس في السنوات 873 هـ (1468م) ، و 881 هـ (1476م) ، و 897 هـ (1491م) وأفنى ثلثي سكانه أي حوالي 5000 نسمة، ففي أوائل القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) ، لم يبق في القدس سوى

3000 نسمة . ثم بدأت الديموغرافية في الصعود ، حيث بلغت في منتصف القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) 8000 نسمة .

وكان سكان بيت المقدس أخلاطاً من مسلمين ونصارى ويهود ، أما النصارى فكانوا يشكلون نسبة كبيرة في زمن المقدسي (القرن الرابع الهجري) ، وأضاف أنهم كانوا أصحاب السلطة في بيت المقدس . وذكر ناصر خسرو في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) عن وجود النصارى واليهود في بيت المقدس، وأن أعداداً كبيرة منهم تأتي من ديار الروم لزيارة الكنيسة والكنيثس. وقد ازداد عدد السكان النصارى بعد الغزوة الصليبية لبلاد الشام واحتلال المدينة المقدسة ، فقد قتل الصليبيون الآلاف من سكان القدس المسلمين، كما هجره أعداد من سكانه العرب النصارى فوليم الصوري يقول : أن مواطني المدينة من السوريين (السريان) كانوا في تناقص نتيجة للمحن والمصائب حتى أن عددهم لم يكن شيئاً في المدينة. وشجع الصليبيون أيضاً هجرة النصارى الوطنيين الى القدس، فتذكر المصادر أن قسماً من نصارى شرقي الأردن في وادي موسى والبلقاء وعمان نزحوا الى القدس ، بعد أن طلب الفرنج منهم ذلك بالاغراء والاكراه ووعدهم بحياة أفضل، واستقبلوهم مع زوجاتهم وأولادهم وقطعانهم. وخصص لهم هناك حي عرف (بمحلة المشاركة) ، لأنهم قدموا من منطقة اللقاء الواقعة شرقي القدس . وبعد تحرير بيت المقدس سنة 583 هـ (1187م) عاد السكان المسلمون للقدس فزادت نسبتهم في العصر الايوبي ومن ثم في العصر المملوكي ، حتى أصبحوا يشكلون نسبة 70 : 80 % من السكان .

ونصارى بيت المقدس كانوا في معظمهم من أصل عربي ، بجانب عدد من نصارى الفرنج من دول أوروبا المختلفة والأحباش . أما أهم الطوائف المسيحية التي وجدت في القدس في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) : اللاتين ، والسوريون (السريان) - والمقصود بهم طائفة اليعاقبة ، والأرمن واليونان (الأرثوذكس) والنساطرة - ثم الهنود ، والأحباش، والجيورجيون. وقدر الرحالة فيلكس فابري عدد النصارى في القدس سنة 888 هـ (1483م) بألف شخص .

وقد حظي النصارى العرب (المكائنة) واليعاقبة والقبط في نيابة بيت المقدس بالتسامح والمعاملة الحسنة ، فمارسوا طقوسهم الدينية في حرية تامة . ثم ان

السلطان فرج بن برقوق سمح للنصارى في سنة 813 هـ (1410 م) ببناء كنيسة بيت لحم، فأحضروا الأخشاب من أوروبا لأجل ذلك ، ونقلوها من يافا الى بيت لحم. وفي سنة 919 هـ (1513م) أصدر السلطان قانصوه الغوري مرسوماً نقشه على بلاطه ألصقها على باب كنيسة القيامة أمر فيه معاملة النصارى الملكانيين واليعاقبة والقبط معاملة حسنة، وألغى ما كان يؤخذ منهم من رسوم عند دخولهم كنيسة القيامة، أو عند دخولهم الى فلسطين عن طريق يافا أو غزة ، ونقل إلينا فان برشيم نص هذا المرسوم كما يلي :

بسملة ... المرسوم بالامر الشريف العالي المولوي السلطاني

الملكى الأشرقي السيفي أعلاه الله تعالى وشرفه وانفذه وصرفه أن لا يكرهوا جماعة الرهبان النصارى والرهبانيات الملكيين واليعاقبة بموجب ولا بخفر ولا بظلم عند دخولهم القدس الشريف أسوة رهبان الكرج والحبوش ولا عند دخولهم الى ميناء يافا ولا عند خروجهم من يافا ولا في مدينة غزة ولا في رملة لد الواردين من الرهبان والرهبانيات من المذكورين في البر والبحر ، وكل ناحية لزيارة بيت المقدس مستمر حكم ذلك من تقادم السنين من غير احداث حادث ولا تجديد مظلمة ومنع من يتعرض إليهم بسبب ذلك او في كمنيرهم (؟) . وهي تربتهم التي يدفنوا بها ، ولا يتعرض أحد الى موتاهم ولا لنوابهم ، ومسامحة الرهبان والرهبانيات من طائفة الروم والقبط من الموجب بالأعمال المذكورة في البسط والموسم على جاري عادتهم، ومنع من يعارضهم في ذلك حملاً في ذلك على ما بيدهم من المربعات الشريفة السالفة والمربع الشريف الأشرقي الذي بيدهم عند انهائهم أنهم رهبان وأهل ذمة ومنقطعين ، وأن بيدهم عهدات وسجلات ومربعات شريفة شاهدة لهم بذلك ، وسالوا كتابة هذا المرسوم الشريف بذلك جميعه وأن ينقش شرح ذلك برخامة وتلصق بباب القيامة وليصير ذلك تذكرة بعدل مولانا المقام الشريف عزَّ نصره على ممر الدهور والأيام صدقة عليهم عند تمثّل القس صفرونس (؟) الراهب الملكى ورفعته لدى المواقف الشريفة . فرسم

بهم بذلك بمقتضى القصة المرفوعة عن الرهبان والرهبانيات المشمولة بالخط الشريف حسب الأمر الشريف شرفه الله تعالى وعظمه بتاريخ اليوم المبارك التاسع من شهر الله المحرم الحرام سنة تسع عشرة وتسعمائة . والحمد لله وحده مصلياً ومسلماً على من لا نبي بعده .

وسكن النصارى الأديرة والكنائس العديدة في المدينة المقدسة ، وبيت لحم والتي بلغت عشرين كنيسة ، أكبرها كنيسة القيامة التي كانت تتسع لثمانية آلاف شخص. ووجد في بيت المقدس حارة سميت بحارة النصارى بجانب باب الخليل .

أما اليهود فكانوا قلة في العصر الإسلامي ، ففي القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) وجد في بيت المقدس عدد من اليهود ، كما وجد فيها كنيس (كنيس) . وكان اليهود يأتون لزيارة بيت المقدس من أنحاء متفرقة من العالم ، وسكنوا في حارة خاصة أطلق عليها (حارة اليهود) . وفي فترة الاحتلال الصليبي لبيت المقدس تعرض اليهود لتعسف الفرنج فهجروا المدينة المقدسة ومعظم أنحاء فلسطين، وامتد تعسف الفرنج لمقابر اليهود ، فدمروا مقابرهم الثلاثة، واستخدموا حجارتها في بناء بيوتهم . وفي منتصف القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ، قدم الرحالة بنيامين اليهودي الأندلسي Benjamin of Tudelu الى فلسطين ، وزار معظم مدنها وقدم لنا احصائية ديموغرافية لليهود . فوجد في بيت جبريل ثلاثة يهود و 12 يهودياً في بيت لحم ، وفي الرملة 3 يهود ، وفي يافا يهودياً واحداً، وعسقلان 200 يهودي، وفي طبرية 50 يهودياً. أما بيت المقدس ونابلس فلم يجد فيهما يهودياً واحداً ، وكانت دمشق آنذاك تمثل أكبر تجمع يهودي في بلاد الشام ، فوجد فيها 3000 يهودي . ثم بدأ اليهود يتسللون الى المدينة المقدسة بعد تحريرها من الفرنج، وزاد عددهم في العصر المملوكي ، وامتحنوا التجارة والصياغة والدباغة كعاداتهم، ولم يكن عددهم كبيراً ففي القرن السابع الهجري (الخامس عشر الميلادي) كانوا زهاء 500 يهودي فقط . ولكنهم تمتعوا بنفوذ قوي بسبب ما لديهم من ثروات طائلة ، ففي سنة 878 هـ (1473م) حدث نزاع بين اليهود والمسلمين حول كنيس اليهود الموجود في حارتهم، فقد ثبت لدى القضاة أن الكنيس

محدث في دار الإسلام ، فأغلقوه ومنعوا اليهود من التعبد فيه. ولكن اليهود في بيت المقدس بزعامة كبيرهم يعقوب ، رفعوا أمرهم للسلطان في القاهرة ، فأمر السلطان بعض العلماء في القاهرة النظر في هذا الأمر ، وحدث خلاف في الرأي بينهم وبين قاضي الشافعية في بيت المقدس الذي منع اليهود من كنيسهم . إلا أن السلطان أرسل مرسوماً في سنة 879 هـ (1474م) الى ناظر الحرمين ناصر الدين بن النشاشيبي بتمكين اليهود من كنيسهم، وعدم معارضتهم، فمكنا منه . وقد أشيع في بيت المقدس أن اليهود بذلوا مبلغاً كبيراً من الدنانير المصوّرة الى الخزانة الشريفة حتى مكّنهم من كنيسهم . ولما ورد ذلك لمسامع السلطان، أمر إعادة النظر في الأمور والتحقق من مسألة الكنيس ، فعقد القضاة مجلساً آخر في المدرسة التنكزية وكان رأي شيخ الإسلام كمال الدين بن أبي شريف أن لا وجه لمنع اليهود من كنيسهم بغير مسوغ شرعي ، وأن من شهد بحدوث الكنيس في دار الإسلام عليه أن يثبت ذلك بسند شرعي . إلا أن القاضي الشافعي تمكن من إثبات وجهة نظره بالشهود، وأصدر أمره بمنع اليهود من كنيسهم مرة أخرى. ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل توجه بعض العلماء الى الكنيس وأمروا بهدمه ، فهدموا غالبه ، فتوجه اليهود للسلطان في القاهرة للشكوى . فأرسل السلطان الأشرف قايتباي مرسوماً بالقاء القبض على القاضي الشافعي وبعض العلماء ممن ناصروه في رأيه، ووضعوا في الحديد وأرسلوا الى القاهرة ، فأهانهم السلطان وضر بهم . ثم دعا الأمير يشبك بن مهدي الدوادار الكبير لعقد مجلس حضره القضاة الأربعة في الديار المصرية وبعض العلماء، ودار البحث في أمر الكنيس، ووصف ذلك اليوم بأنه (كان يوماً مهولاً بنصرة اليهود على المسلمين) . وقد استعمل الدوادار يشبك سلطاته واستخدم القوة لارهاب الحضور ، فعندما تكلم رجلان من طلبة العلم بما فيه نصرة المسلمين، ألقى القبض عليهما وأشهرهما ووضعهما في الزنجيز . ثم أخذ الأمير يشبك يهدد ويتوعد ، عندئذ أصدر قاضي القضاة الشافعي في الديار المصرية ولي الدين الأسيوطي أمراً بعدم جواز المنع الصادر من القدس لفساده ، ثم أفتى بعض العلماء في الديار المصرية بجواز إعادة الكنيس أما قضاة بيت المقدس فأمر السلطان بعزلهم ومنعهم من سكنى القدس .

ونتيجة لهذه الفتاوي التي حصل عليها اليهود ، تقدموا يطلبون من السلطان

بتمكينهم من إعادة كنيسهم، وكان أكبر المساعدين لهم الأمير يشبك الدوادر الكبير بسبب ما بذلوه له من أموال طائلة . وأخيراً تمكن الأمير يشبك من اقناع السلطان بإعادة كنيسهم، فأصدر مرسوماً بذلك ، فشرعوا بإعادة بنائه في 11 ربيع الآخر سنة 880 هـ . وهكذا فإن إعادة بناء الكنيس اليهودي يدل على النفوذ الكبير الذي تمتع به اليهود في بيت المقدس ولدى السلطنة المملوكية بسبب امتلاكهم الأموال الطائلة وبذلهم الأموال للأمراء ورجال الدولة ، وقد سموا اليوم الذي أعادوه فيه كنيسهم (عيد النصر) . ومن هنا نرى أن اليهود في بيت المقدس رغم عددهم القليل إلا أنهم كانوا في العصر المملوكي يتمتعون بنفوذ قوي لدى الحكام ، ونفوذ مادي بسبب اشتغالهم بالتجارة والصياغة .

مما تقدم نستطيع القول بأن أهل الذمة من اليهود والنصارى تمتعوا في العصر الإسلامي بتسامح ديني ، ومارسوا حقوقهم كاملة دون تعصب ، وزاولوا مهنتهم بحرية تامة ، وعاشوا مع المسلمين في المدن والقرى . وإن كنا نجد بعض النصارى يعيشون ويشكلون نسبة كبيرة في بعض المدن والمناطق ، مثل نصارى وادي موسى والكرك في شرقي الأردن ، والقدس والناصرية وبيت لحم وبيت جالا في فلسطين .

ولم يكن النصارى بمنأى عن الأحداث السياسية في المنطقة ، فنجد أن نصارى الكرك والشوبك وقفوا الى جانب السلاطين المماليك ، فأيدوا الناصر محمد ابن قلاوون في ثورته بالكرك ، وقدم أحد التجار النصارى الشوابكة الى الظاهر برقوق مائة ألف دينار لينفقها في اعداد القوات والعساكر . لذا منحهم السلاطين امتيازات خاصة ، فنجد انه في عهد السلطان برقوق نال نصارى الكرك والشوبك حظوة لديه ، فأعفاهم من الضرائب إكراماً لموقفهم معه ومساعدتهم إياه في ثورته التي انطلقت من الكرك والتي بها تمكن من استعادة عرشه في القاهرة .

وكان للنصارى في بلاد الشام بطركان اثنان الأول في أنطاكية والثاني في القدس وكانت بطريركية بيت المقدس تحكم نصارى فلسطين وشرقي الأردن . وفي العصر المملوكي ذكرت المصادر وجود هذا البطريرك في دمشق واليه مرجعهم في التحليل والتحريم والحكم والفصل بينهم بحكم مذهبهم في مواريتهم وأنكحتهم ، وإليه أمر الكنائس والديارات والرهبان ورعاية شؤونهم . أما اليهود فكان لهم

رئيس يتكفل أمورهم واقامة حدود التواراة بينهم مركزه دمشق أيضاً، أما السامرة فرئيسهم في نابلس .

وعاش الناس في بيت المقدس حياة الرغد والثراء ، فامتحن عدد منهم التجارة والصناعة التي درت عليهم الأرباح الطائلة ، ونستدل على عظم تجارته بكثرة أسواقه وتشعبها. وكان للقدس موارده من المواسم والأعياد ، فالحجاج المسلمون كانوا يبلغون عشرين ألفاً ، وكذا الحجاج النصارى واليهود . وكان أهالي القدس والمنطقة المجاورة يكسبون الكثير في تلك المواسم . ثم هناك الأموال التي خصصت للأوقاف وطلبة العلم وتلك التي يتصدق بها السلاطين على بيت المقدس وأهله ، كل هذه الأمور مجتمعة ساعدت على تكوين طبقة ثرية في القدس . ونستدل على ذلك امتلاك الموسرين للقصور (المصايف) خارج القدس في (البقعة) الواقعة غربي القدس ، حيث يقضون فصل الصيف في تلك القصور وينفقون الأموال الطائلة عن سعة .

وأقام الأهالي في بيت المقدس الاحتفالات في المواسم والأعياد عند تجديد ولاية النائب أو قاضي القضاة، فيلبس الأمير أو القاضي خلعة التجديد أو الولاية ويدخل المدينة بعد أن يخرج الجميع لاستقباله ، وينتهي هذا الموكب الى المسجد الأقصى حيث يتلى على المجتمعين مرسوم السلطان. وأقيمت الاحتفالات عند خروج الحجاج الى الحجاز ، ولم يكن لنيابة بيت المقدس ركب خاص ، بل يخرج الحجاج من القدس والخليل والرملة ونابلس وبلاد الساحل الى غزة وينضمون الى (الركب الغزاوي) .

م 1997/5/19

مكتبة التراث الإسلامي - مؤسسة الأمانة الإسلامية - القاهرة

كتب صدرت للمؤلف

مكتب السبب
لنشر الكتب
بإشراف
إسلام الجليل
<http://www.al-sabab.com>

1. عمان حضارتها وتاريخها، دار اللواء، عمان، 1979م .
2. التاريخ السياسي لشرقي الأردن في عصر دولة المماليك الأولى، طبعة أولى، وزارة الثقافة، عمان، 1979م، وطبعة ثانية، دار الفكر، عمان، 1982م .
3. التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي، طبعة أولى، وزارة الثقافة، عمان، 1979م، وطبعة ثانية، دار الفكر، عمان، 1982م .
4. إمارة الكرك الأيوبية، طبعة أولى، منشورات بلدية الكرك، عمان، 1980م، وطبعة ثانية، دار الفكر، عمان، 1982م.
5. غلاة الشيعة الباطنية في بلاد الشام، المطابع التعاونية، عمان، 1981م .
6. علماء وفقهاء محافظة إربد، منشورات جامعة اليرموك، 1982م .
7. تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، دار الحياة، عمان، 1982م .
8. دراسات في تاريخ الأردن وفلسطين في العصر الإسلامي، دار الفكر، عمان، 1983م .
9. ايلية (العقبة) والبحر الأحمر وأهميتها التاريخية والاستراتيجية، دار هشام للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، 1984م .
10. الحياة العملية والثقافية في الأردن في العصر الإسلامي، دار هشام للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، 1984م .
11. معركة اليرموك، دار هشام للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، 1985م .
12. مدينة إربد في العصر الإسلامي، منشورات مركز الدراسات الأردنية، جامعة اليرموك، 1986م .
13. أضرحة الصحابة في غور الأردن، منشورات مركز الدراسات الأردنية، جامعة اليرموك، 1986م .
14. المساجد الإسلامية القديمة في منطقة عجلون، منشورات مركز الدراسات الأردنية، جامعة اليرموك، 1986م .
15. دليل مدينة إربد، منشورات بلدية إربد، الأردن، 1987م .
16. الزلازل في بلاد الشام في العصر الإسلامي، وأثرها على المعالم العمرانية، دار الفكر، عمان، 1990م .
17. الحسين بن علي الملك والثائر، دار الفكر، عمان، 1995م .
18. معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنجة ... خطاب جديد في العجز الإسلامي والعربي، والمشروع النهضوي العربي الوحدوي، دار الفكر، عمان، 1995م .
19. مقامات الصحابة في الأردن، منشورات وزارة الشباب، عمان، الأردن، 1995م .
20. عبدالله بن الحسين الملك المؤسس، منشورات وزارة الشباب، عمان، الأردن، 1995م .
21. صفحات من تاريخ القدس وفلسطين والأردن في العصر الإسلامي، دار الفكر، عمان، 1998م .
22. الأردن وفلسطين وتحديات المشروع النهضوي، دار الفكر، عمان، 1998م .
23. الآثار الإسلامية في الأردن، (تحت الطبع) .